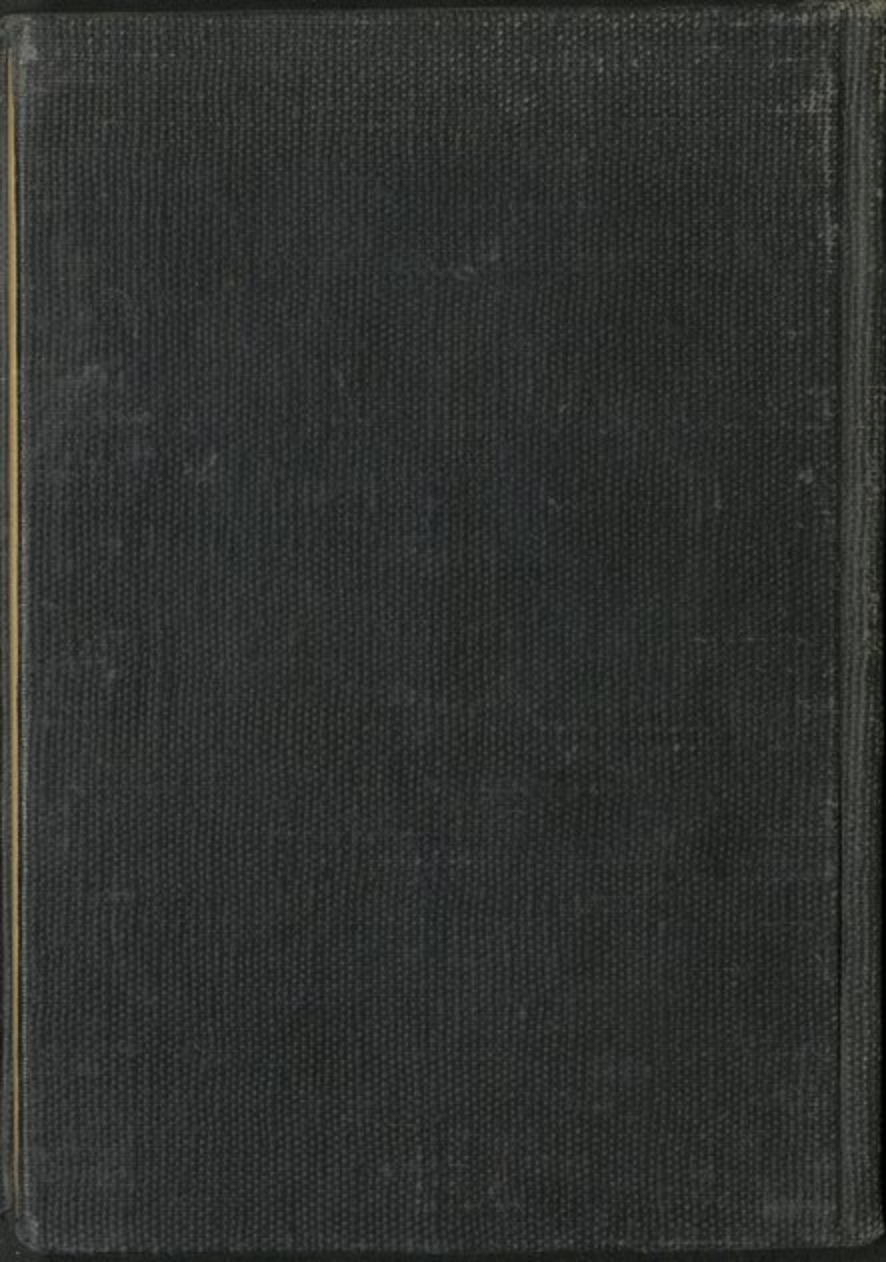
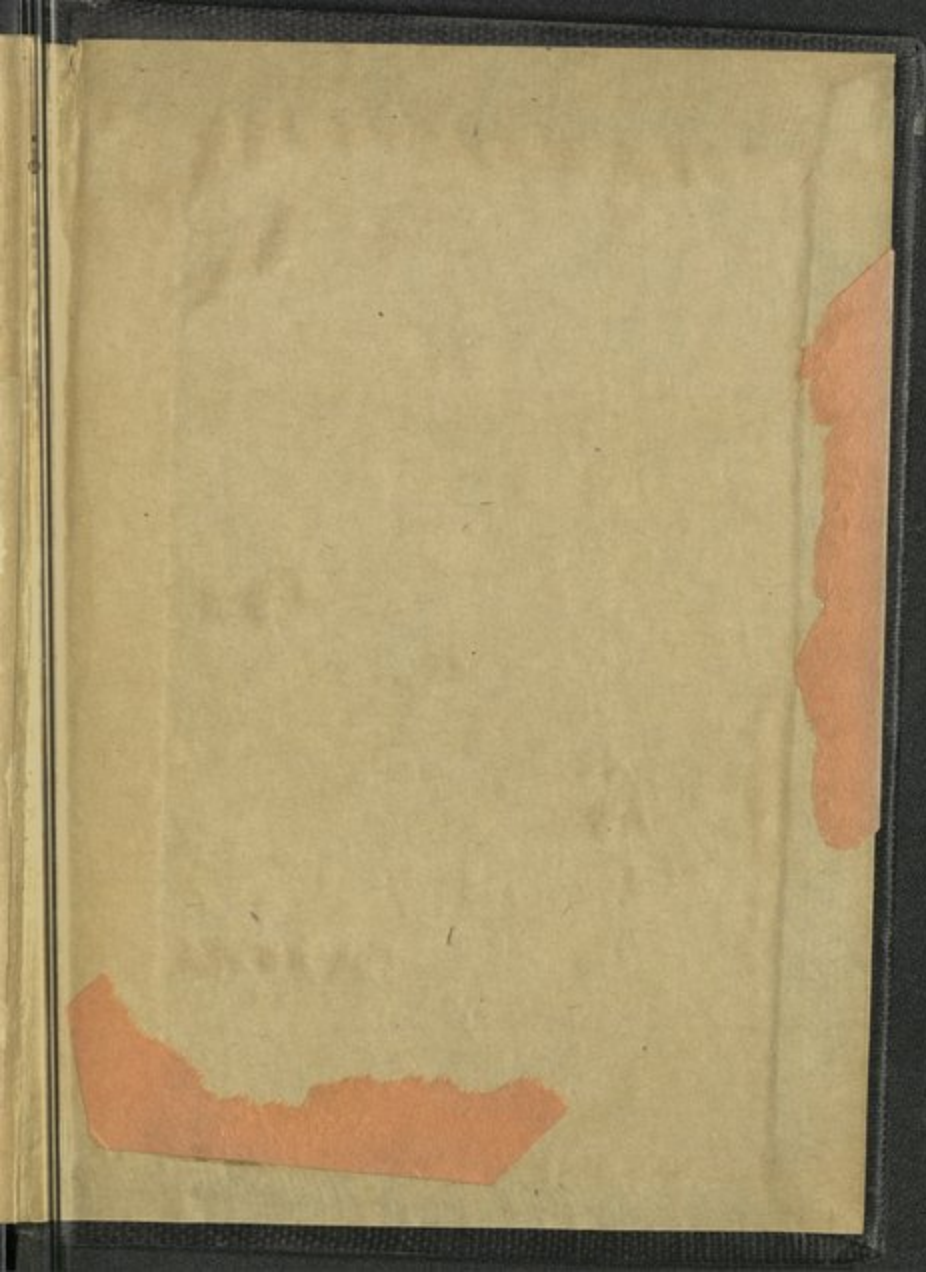






320.1:J11aA

جبري ، شفيق +

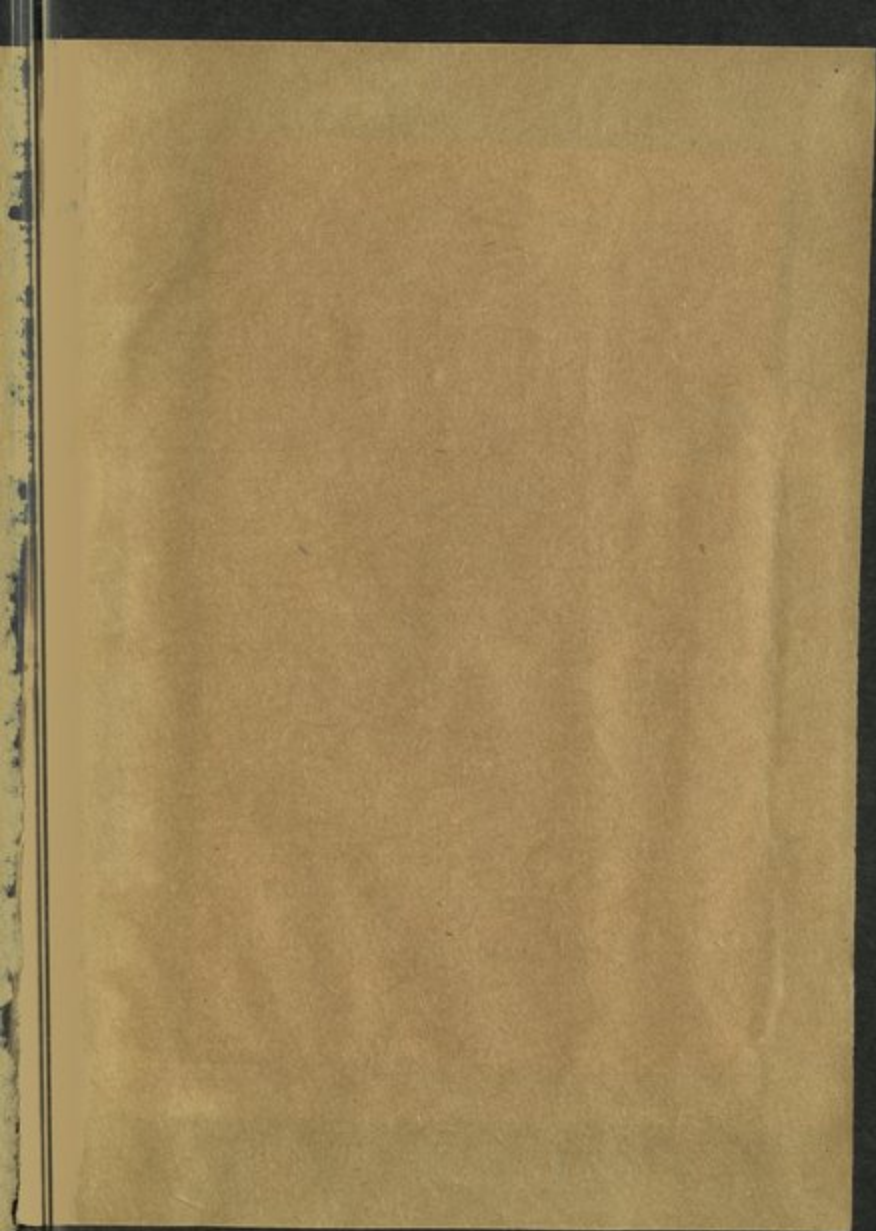
العناصر النفسية في سياسة العرب +

320.1

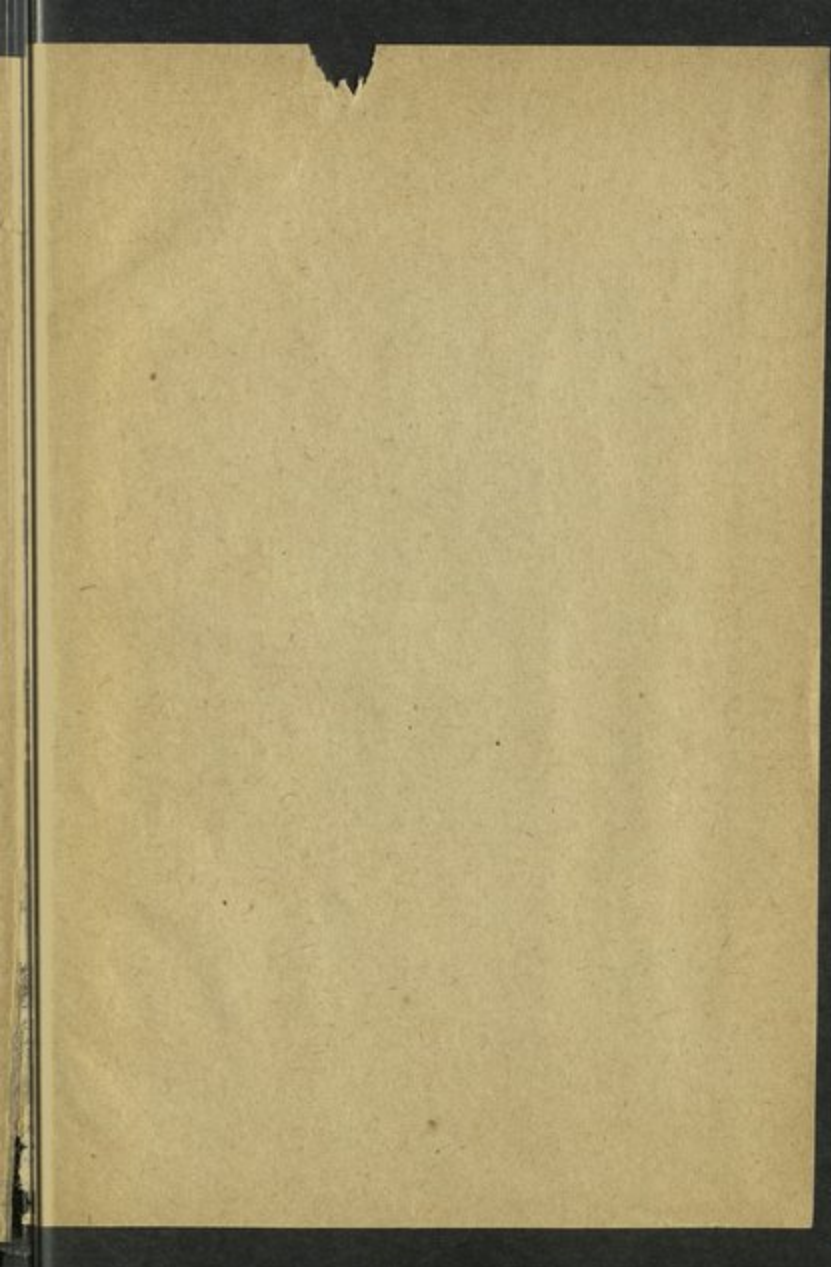
J11aA

NO 13 54

JAN 11 1981



العناصر النفسية
في سياسة العرب



320.1
J11aA
C.1

شفيق جبري



العناصر النفسية في سياسة العرب

٣٧

اقرأ

تصدرها دار المعارف
بمعاونة الدكتور محمد حسين بك وأنطون أبو خليل بك
وعباس محمود العيساد وفؤاد صروف

اقرأ ٣٧ — ديسمبر سنة ١٩٤٥



جميع الحقوق محفوظة
لدار المعارف

فاتحة القول

لو بعث في يومنا المؤرخون الذين دونوا تاريخ العرب في الماضي فنظروا في الذي كتبوه في هذا الباب ، لكان أسلوبهم في الحكم على الرجال والأخبار غير أسلوبهم الأول ، لا شك في أنهم كانوا لا يغفلون في هذا العصر العناصر النفسية في سياسة الأفراد والجماعات والأمن ، كانوا إذا تكلموا على رجل من رجال العرب تولى مقاليد الأمر والنهي في زمن من الأزمان جعلوا للعنصر النفسي في كلامهم مقاماً ، فإذا بحثت سياسة هذا الرجل في الناس أو إذا لم تفجح هذه السياسة فإنهم كانوا يبحثون عن العوامل التي أدت إلى النجاح أو الإخفاق ، وقد تكون هذه العوامل مرة اجتماعية ومرة اقتصادية أو غير ذلك ، وكيف كان الأمر فإن للعوامل النفسية في النجاح والإخفاق شأنًا غير قليل .

لقد تؤثر في مصير الناس أمور شتى ، ولكن أعظم هذه

فلا أقل من الإشارة إلى مثل واحد من أمثال تطبيق علم النفس في الحرب .

يقال في بعض القلاع والحصون ، على ما ذكره الدكتور « غستاف لوبون » في كتابه : تطور العالم ، أن قسما من جهاتها لا يمكن الاستيلاء عليه ، ولهذا الاعتبار يبقى هذا القسم ضعيف التحصين ، وقد استفاد بعض القواد من هذه الغلطات النفسية ، فرأوا أن يهجموا على القلاع والحصون التي هي من هذا النوع من الجهة التي قيل فيها لا يمكن الاستيلاء عليها ، فظفروا بما أرادوا ، وقد جربت هذه الطريقة في الحرب الماضية من قبل الألمان ومن قبل الفرنسيين فنجحت ، وهي طريقة نفسية .

هذا عمل من أعمال علم النفس في الحروب ، أما في السياسة العامة فإنه يعلمنا الفن الصعب الذي نقود به الجماعات والأفراد ونحول به عواطفهم ، وقد تمثل « لوبون » في هذا الباب برواية من روايات « شكسبير » فمن طالع هذه الرواية استطاع أن يجد فيها دليلا واضحاً على ذلك في الخطاب الذي ولده « شكسبير » على لسان « انطونيوس » لما استشار الجماهير أمام جثة قيصر .

لا شيء أصعب من سياسة الناس ، لأن الرجل عادة مركب

من شخصيات شتى ، لا تظهر إلا في أحوال معينة ، وما هذا الثبات الذى نراه فى شخصية كل واحد منا إلا شكل ظاهر لا غير ، تثبت هذه الشخصية بثبات أحوال معينة ، فإذا تغيرت هذه الأحوال تغيرت شخصية الرجل ، فالهادىء قد يصبح ناثراً ، والرقيق قد يصبح قاسياً ، والفاضل قد تتناثر فضائله ، فإذا جهل رجال السياسة هذه الخفايا النفسية فإن جهلهم يؤدى إلى الإخفاق فى سياستهم أو إلى الذهاب بحياتهم أو إلى القضاء على بلادهم فى بعض الأحيان .

لا أجد سبيلاً إلى التوسع فى هذه المقدمة ، وإنما حسبى من كل ما ذكرت أن أشير على سبيل الإيجاز إلى أن السياسة المجردة من علم النفس إنما هى سياسة مفشقة . بقى على أن أذكر نماذج من سياسات العرب التى نجحت أو التى لم تنجح ، وكان لنتائجها أو لإخفاقها عوامل متفاوتة ، أقف منها فى هذا الكتاب على العامل النفسى وحده ، دون الكلام على غيره .

لقد طالعت كتباً فى تاريخ العرب وأدبهم ، فكنت فى خلال هذه المطالعة أمر بأمور تدل على معرفة أصحابها بنفوس الناس ووقوفهم على طبائعهم وأمزجتهم وأخلاقهم ، وأمور تدل على

الانحراف عن هذه المعرفة . وقد تبين لى أن أكثر العمال
والأمراء والخلفاء الذين حسنت سياستهم للناس فحمد الناس
أيامهم إنما هم الذين خالطوا نفوس الأفراد والجماعات والأمم
ومازجوها فانكشفت لهم أسرارها ووقفوا على مواطن الضعف
والقوة فيها ، أما الذين كان نصيبهم من هذه المعرفة النفسية
قليلا فقد تعبوا فى سياستهم ووقعوا فى الورطات .

وغايتى فى هذا الكتاب أن أبسط ما خطر ببالى من الخواطر
فى أثناء مطالعتى للأمور التى ذكرتها ، وليس اهتمامى بأن
أكون مصيباً فى خواطرى على قدر اهتمامى بأن أهد للقارى
الكريم سبيلا إلى فهم التاريخ من الناحية النفسية ، فإذا استطاع
بعد نظره فى نماذج السياسات التى سأذكرها أن يتصفح التاريخ
على النحو الذى تصفحته فقد بلغت ما أريد ، وسواء على بعد
هذا أكان يشاركنى فى آرائى أم كان ينفرد بآرائه ، إنما المهم
بعد اليوم أن نقرأ التاريخ من نواحي عناصره النفسية حتى يكون
فهمنا له أتم ونظرنا فى فلسفته أكمل .

سيد العرب

قالت سيدتنا عائشة : دخل أبو بكر على رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وهو مضطجع وعليه ثوبه ، فقضى حاجته وخرج ودخل عمر ، فقضى حاجته وخرج ، ثم جاء علي ، فقضى حاجته وخرج ، ثم جاء عثمان ، فجلس له رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقالت له عائشة : لم تصنع هذا بأحد ، فقال : إن عثمان رجل حيي ، وإني خشيت إن أذنت له على تلك الحال أن لا يبلغ إلي في حاجته .



قد نمرُ بخبر مثل هذا الخبر ، فإمّا أنا لا نحتفل به ، وإمّا أنا لا نهتدي إلى جلالة قدره في معرفة عبقرية سيدنا محمد ، فهو عنوان من عناوين هذه العبقرية ، وما أظن أن الذين كتبوا في سيرة الرسول أهملوا الاهتمام بأشبه هذا الخبر ، ولو فعلوا لما كانت كتابتهم كتابية ، فقد كان سيدنا محمد عالماً بنفوس جماعته وصحابته ، واقفاً على دقائق أخلاقهم ، محيطاً بغوامض أمزجتهم ، يعلم ما يغضب

له فلان من الصحابة ، وما يرضى به فلان ، ويعرف ما يستشير
 فلاناً وما يهدأ به فلان ، فعامل كل واحد منهم المعاملة المناسبة
 له ، اللاتفة به ، حتى أشربت القلوب محبته ، وانطوت على
 طاعته ، فلم ينفذ أحد من حوله . وهذا منتهى الحذق في سياسة
 الناس . وليس يعلم ما لهذه الأمور النفسية من الأثر في سياسة
 الخلق إلا الذين كتب لهم أن يمارسوا هذه السياسة ويعالجوها ،
 فما أكثر الذين ينفذون من حول زعيم من الزعماء لأنه فظ
 غليظ القلب ، وما أكثر الذين ينضمون إلى رئيس من الرؤساء
 لأنه رقيق القلب ، لطيف الحس ، ينزل الناس منازلهم ، ويخاطبهم
 على قدر مراتبهم ، وهذه حكمة يختص الله بها من يشاء ، ويحرمها
 من يشاء ، ولهذا الاختصاص ، ولهذا الحرمان ، أبلغ الأثر في التوفيق
 في سياسة الناس أو في الإخفاق فيها .



وقريب من هذا الخبر ما جاء في بعض الأحاديث: فقد أذن
 رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، للناس ، فكان آخر من دخل
 عليه أبا سفيان بن حرب ، فقال: يا رسول الله ! لقد أذنت للناس

قبلى ، حتى ظننت أن حجارة الخفدمة ^(١) ليؤذن لها قبلى ،
فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : أما والله إنك والناس
لكما قال الأول ^(٢) . كل الصيد فى جوف الفرا . أى كل شئ
لهؤلاء من المنزلة ، فإن لك وحدك مثل ما لهم كلهم !



قد نظن أن هذا الخبر لا يدلنا إلا على منزلة أبي سفيان وحدها ،
ولكن فيه عنصراً آخر من عناصر سياسة الرسول . إنا نعلم أن
أبا سفيان كان سيداً من سادات قريش فى الجاهلية ، كانت عنده
العقاب راية قريش ، وإذا كانت عند رجل أخرجها إذا حميت
الحرب ، فإذا اجتمعت قريش على أحد أعطوه العقاب ، وإن لم
يجتمعوا على أحد رأسوا صاحبها فقدموه . وكان رأساً من رؤوس
الأحزاب فى الإسلام ، إلا أن سيدنا محمداً لما قال له : كل الصيد
فى جوف الفرا ، لم يقصد إلى الدلالة على مكانته وحدها ، وإنما

(١) جبل بكة

(٢) يقول الجاحظ إن هذا الكلام : كل الصيد فى جوف الفرا ، لم يدع
لأحد ولا ادعاه أحد غير النبي ، فقول صاحب الأغاني : لكما قال الأول ،
يحتاج إلى تحقيق .

خرج بهذا الكلام من مقام حرج . فإن قول أبي سفيان : حتى ظننت أن حجارة الخدمة ليؤذن لها قبلي ، يصور أوضح تصوير ثورة أعصابه وهيجان نفسه وشدة غضبه . ومن يدرى ما كان يجر إليه هذا الكلام لو لم يسرع إلى التخفيف من هذه الثورة والغضب ، وقد رأى سيدنا محمد في وجه أبي سفيان هذا كله ، وعرف أن من وراء هذه الثورة شيئاً لا تحمد عقباه ، فتلافى الأمر بمحاسن حكمته ولطائف فطنته ، فإن قوله : كل الصيد في جوف الفرا ، قلب أبا سفيان من حال إلى حال في أقل من رد النفس . فقد قلبه من الغضب إلى الرضى ، ومن الثورة إلى الهدوء ، ومن العبوس إلى الطلاقة . ومهما يقل الرسول لأبي سفيان بعد هذا الكلام فقد كان أبو سفيان مستعداً لقبوله ، لأن ثورته قد هدأت وغضبه قد سكن ، ولم ينصرف فكره إلا إلى هذه المنزلة التي رده إليها سيدنا محمد . وأسلوب مثل هذا الأسلوب في معاملة الناس الخاصة ليس بالأمر الهين ، فليس بالأمر اليسير أن يدخل عليك رجل يستشيط غيظاً ويتلظى غضباً ، وترى هذا كله في وجهه ، ثم تخرجه في أقل من لحظة من حال إلى حال ، وذلك

بكلمة تهتدى إليها في حينها وتضعها في موضعها ، فتكون هذه الكلمة بمنزلة الثلج الذى يوضع على كبد محموم .
 هذه غاية المهارة في معرفة أسرار النفوس وعوامل الغضب والرضى والثورة والهدوء . وبمهارة مثل هذه المهارة نجحت سياسة سيدنا محمد في جماعة فيهم أمثال أبى سفيان ، وما كان نجاحها بقليل !

*

لقد تمثلت في هذا الباب بأمرين بسيطين جداً ، ولكن لهذه الأمور البسيطة التى لا نبالى فى أثناء اطلاعنا عليها صلة عظيمة بنجاح صاحب مذهب من المذاهب أو معتقد من المعتقدات أو دين من الأديان ، عالمًا بنفوس أهل البيئة التى ينشر فيها دعوته ، لا صقاً بأخلاقهم وطبائعهم ، واقفاً على مداخلهم ومخارجهم ، فأخلق بدعوته أن لا تذهب عبثاً ، وما أظن أن أحداً بلغ من معرفة النفوس ما بلغه سيدنا محمد ، فقد نقل بيئة من عالم إلى عالم ، أدخل على عالمه الجديد أفكاراً وعواطف لا عهد لعالمه القديم بمثلها ، فليس بالأمر السهل أن ينشأ فى بيئة معروف أمرها فى العصبية والنخوة كلها سادات طبعوا على السيادة فيقبح أفعالهم ويذم آراءهم ،

ويسفه أحلامهم ويزيل دياناتهم ويبطل سننهم . ليس بالأمر السهل أن ينزع بالناس عما ألفوه من الديانات إلى دين حديث لم يألفوه ، فإن دياناتهم القديمة قد رسخت في قلوبهم وتمكنت من ضمائرهم وصارت جزءاً من لحمهم ودمهم وروحهم ، ولكن سيدنا النبي خبر أخلاق رجاله العرب ، وامتحن نفوسهم وطبائعهم ، فسهلت له هذه الخبرة جليل عمله الذي أقدم عليه ، ومهدت له سبيلاً إلى التوفيق فيه . ولقد اجتمعت له أسباب كثيرة هيأت له نجاح دعوته ، ولكن الذي يهمني في هذا المقام إنما هي الأسباب النفسية وحدها ، فقد تجلت قدرته على خبرة النفوس في كثير من أعماله ، ولا أرى بي حاجة إلى ذكر هذه الأعمال كلها ، وحسبي ما أشرت إليه من اهتمامه إلى تحويل بيئة من ديانة إلى ديانة ، فهذا العمل وحده دليل قاطع على عظمة سياسته النفسية . لقد دخل الأمور من أبوابها ، ولو كان يجهل نفوس أهل البيئة التي عاش فيها لما استفاضت دعوته في الآفاق . ولا يشبهه أحد من رجال العرب في سياستهم النفسية مهما تكن قدرتهم على هذه السياسة . لا شك في أنه قد نجحت سياسة كثير من عمال العرب وأمرائهم وخلفائهم ، لبناء هذه السياسة على علم النفس ، ولكن نجاحهم

لا يكاد يكون شيئاً إذا قيس إلى نجاح سيدنا محمد في خلق أمة .
ولو استقصينا في كلام الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، لوجدنا
طائفة كبيرة من هذا الكلام متفجرة من معرفته بنفوس الناس .
من هذا النوع قوله : الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف
وما تفكر منها اختلَف ، أو قوله : المرء مع من أحب ، أو قوله :
حبك الشيء يعمى ويصم ، أو قوله : الناس معادن كمعادن
الذهب والفضة ، أو قوله : جبلت القلوب على حب من أحسن إليها ،
أو قوله : اطلبوا الخير عند صباح الوجوه ، أو قوله : كادت الفاقة
أن تكون كفراً ، أو قوله : زرعياً تزدد حباً . فلو عمدنا إلى كل
كلمة من هذا الكلام ، أو إلى أمثالها من جوامع الرسول ، ففككنا
أجزاءها ، ودققنا في عناصرها لتبين لنا أنها حجة بليغة على العلم
بالنفوس والأخلاق والأمزجة والطبائع .

يوم السقيفة

للعناصر النفسية في سياسة العرب مظاهر شتى ، مرة تظهر هذه العناصر في معاملة الناس على مقادير أمزجتهم ومراتبهم ، على نحو ما سبقت الإشارة إليه في الكلام على سيدنا محمد ، ومرة تظهر في صرف الناس عن أمر غير محمود العواقب ، على نحو ما جرى في يوم السقيفة .

لهذا اليوم شأن خاص فهو لا يشبه أى يوم من أيام الإسلام بعده ، فقد قبض رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وكان شمل الإسلام مجتمعاً به ، فكاد هذا الشمل يتصدع بعد وفاته .

إلى من تصير الخلافة بعد النبي ؟ هذا ما لم يعلمه المسلمون ، فقد طمع فيها المهاجرون والأنصار ، واجتمعت بنو هاشم إلى على بن أبى طالب ومعهم الزبير بن العوام ، واجتمعت بنو أمية إلى عثمان بن عفان ، واجتمعت بنو زهرة إلى سعد وعبد الرحمن بن عوف ، هذه حلق مختلفة ، والله وحده يعلم الشر الذى كان

ينشأ عنها ، ولكن شيئاً يسيراً من معرفة نفوس الناس قد دفع الشر عن المسلمين .

أول من طمع في الخلافة إنما هم الأنصار ، أو سبهم وخزرجهم . لما قبض النبي اجتمعت الأنصار إلى سعد بن عباد ، وهو من الخزرج ، وفي نيتهم توليته أمر المسلمين بعد وفاة سيدنا محمد ، وكان مريضاً لا يستطيع أن يسمع الناس كلامه ، فكان يتكلم فيتلقى ابنه قيس قوله منه ، فيحفظه ويرفع صوته لكي يسمعه قومه . ومن المنتظر في مقام مثل هذا المقام أن يذكر للأنصار سابقتهم في الدين وفضيلتهم في الإسلام ، وأن لا يرى لقبيلة من العرب مثل هذه السابقة وهذه الفضيلة ، فبأسيا فهم دانت العرب للرسول ، فهم أحق الناس وأولاهم بالخلافة ، ولقد كان لهذا الكلام أثر بليغ في الأنصار ، حتى قالوا له بعد أن سمعوه : وفقت في الرأي ، وأصبحت في القول !

ولكن المهاجرين لم يسرهم اجتماع الأنصار وخطبة سعد بن عباد فيهم ، فلما تناهى خبر هذا الاجتماع إلى أبي بكر فزع أشد الفزع ، فقام معه عمر بن الخطاب ، فخرجا مسرعين إلى سقيفة بني ساعدة ، فدخلوا السقيفة ومعهم أبو عبيدة بن الجراح

فتولى الكلام أبو بكر، وبين فضل المهاجرين في الإسلام .
فهم أول الناس إسلاماً ، والناس لهم فيه تبع ، وهم عشيرة
رسول الله ، وهم أوسط العرب أنساباً ، ولكنه مع هذا لم ينكر
فضل الأنصار ، أوى إليهم رسول الله فنصروه ، فهم وزراء
المهاجرين في الدين ، وإخوانهم في كتاب الله ، وشركاؤهم في
السراء والضراء .

ولقد تشاح المهاجرون والأنصار على الخلافة ، قريش من
جهة ، والخزرج والأوس من جهة ثانية ، فكلما فرغ فريق من
بيان حجته قام فريق آخر وأضعف هذه الحجة ، وكان عمر بن
الخطاب يؤيد أبا بكر في كلامه ، حتى كاد الأمر يفضى بالمهاجرين
والأنصار إلى التهديد بتحطيم الأناف بالسيوف !

ومن محاسن حظ المهاجرين في حال مثل هذه الحال ، الفتنة
فيها قائمة ، والقلوب هائجة مأبجة ، والأعصاب نائرة ، أن يدب
التحاسد بين الأنصار ، فيقوم رجل منهم وهو بشير بن سعد
من سادات الخزرج ، فيرى ما اتفق عليه قومه من تأمير سعد بن
عبادة ، فيحسد سعداً على ذلك ، فيدعو الأنصار إلى التخلي
عن الخلافة لأن النبي من قريش ، وقومه أحق بميراثه وتولى

سلطانة ، ويسبق قريشاً إلى مبايعة أبي بكر ، فيضعف بعمله
 هذا حال الأنصار ، حتى قام الأنصار فبايعوا أبا بكر .
 لا شك في أن لبشر بن سعد فضلاً عظيماً في خلافة أبي بكر .
 ولكن له فضلاً أعظم في دفع فتنة عن المسلمين لو لم تدفع لكان
 خطبها جليلاً . وهذا الفضل ناشئ عن إحاطة علمه بنفوس القوم .
 لما بايع المهاجرون والأنصار أبا بكر تخلف سعد بن عباد عن
 البيعة ، فهو لا يبايع حتى يرمى أبا بكر وجماعته بكل سهم في
 كنفاته ، ويخضب منهم سنانه ورمحه ، ويضربهم بسيفه ،
 ويقاثلهم بمن معه من أهله وعشيرته ، وإن كلاماً مثل هذا
 الكلام لا يسكت عنه عمر بن الخطاب ، فأوغر صدر أبي بكر
 عليه وقال له : لا تدعه حتى يبايعك ، فلو عمل أبو بكر بكلام
 عمر لوقع المسلمون في شر عظيم ، وقد نبه على هذا الشر بشير بن
 سعد فقال للمهاجرين : ليس يبايع سعد حتى يقتل ، وليس
 بمقتول حتى يقتل ولده معه وأهل بيته وعشيرته ، ولن تقتلوه
 حتى تقتل الأوس ، فلا تفسدوا على أنفسكم أمراً قد استقام لكم
 فاتركوه ، فليس تركه بضاركم ، وإنما هو رجل واحد ، فتركوه
 وقبلوا مشورته .

بهذا الكلام أغلق باب الفتنة . وما ذكرت ما ذكرت من تلخيص أخبار السقيفة إلا لأصل إلى هذا الكلام ، ففيه دلالة عظيمة على علم النفس ، فيه السياسة المبنية على أصول نفسية ، فلو قتل سعد بن عبادة وهبت الخرج والأوس للأخذ بشاره ، فكيف تكون عاقبة المسلمين ، والإسلام لا يزال في أوله ؟ كيف يكون أثر أول اقتتال في الإسلام على أول خلافة فيه ؟ فبرأى مثل رأى بشير بن سعد سلم المسلمون من شر هذا الاقتتال ، ولم يقذف بشير بن سعد بهذا الرأي عبثاً ، فهو يعرف عادات العرب عامة ، وقومهم خاصة ، في الثأر . ولكنى لا أرى في هذه المعرفة فضلاً كبيراً ، فإن مثل هذه العادات معروفة في العرب ، إنما الفضل كل الفضل في تحذيره المهاجرين قتل رجل من الأنصار تخلف عن البيعة وليس في تخلفه شيء من الضرر ، لأن بيعة المسلمين قد تمت ، والأمر قد استقام ، فاجتنب أمر صغير مثل هذا الأمر نجى المسلمين من شرٍ عظيم ، وهذا الاجتناب من وحي المعرفة النفسية ، فبطل يوم السقيفة في الحقيقة إنما هو بشير بن سعد !

أهل الردّة

قد تكون العوامل النفسية في بعض الأوقات سبباً في إهمال أمر من الأمور ، وقد تكون في أوقات ثانية سبباً في الاهتمام بهذا الأمر ، ففي أخبار السقيفة التي تقدم شرحها كان السكوت عن سعد بن عباد الذي تخلف عن بيعة أبي بكر حكمة سياسية مبنية على معرفة نفسية ، ولم يكن السكوت عن أهل الردة شبيهاً بالسكوت عن ابن عباد. وهذا خلاصة الردة :

لما تمت البيعة لأبي بكر واستقام له الأمر اشرأب النفاق بالمدينة ، وارتدت العرب عن الإسلام ، فنصب أبو بكر لهم الحرب ، وأراد قتالهم ، فقالوا : نصلي ولا نؤدى الزكاة ، فقال الناس : أقبل منهم يا خليفة رسول الله ، فإن العهد حديث ، والعرب كثير ، ونحن شرذمة قليلون ، لا طاقة لنا بالعرب ، مع أنا قد سمعنا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقول : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله . فقال أبو بكر :

هذا من حقها ، لا بد من القتال ، فقال الناس لعمر : أخل به فكلمه ، لعله يرجع عن رأيه هذا ، فيقبل منهم الصلاة ويعفيهم من الزكاة ، فخلا به عمر نهاره أجمع ، فقال : والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه ، ولو لم أجداً أحداً أقاتلهم به لقاتلتهم وحدي حتى يحكم الله بيني وبينهم وهو خير الحاكمين ، وقد سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقول : أمرت أن أقاتل على ثلاث ، شهادة أن لا إله إلا الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، فوالله الذي لا إله إلا هو لا أقصر دونهن . فضرب منهم من أدبر بمن أقبل حتى دخل الناس في الإسلام طوعاً وكرهاً ، وحمدوا رأيه وعرفوا فضله . قال أبو رجاء العطاردي : رأيت الناس مجتمعين وعمر يقبل رأس أبي بكر ويقول : أنا فداؤك ، لولا أنت لملكنا ، فحمد له رأيه في قتال أهل الردة .

هذا ما رواه ابن قتيبة مما له صلة بأخبار أهل الردة ، وقد كان يجب على التبسط في هذه الأخبار لعظم قدر الحادث الذي حدث في الإسلام ، ولكن هذا التبسط من خصائص التأريخ ، ولست مؤرخاً في كتابي هذا . لقد اطلعت على ما كتبه بعض المؤرخين

في أخبار أهل الردة ، فلم يزيدوا في كتابهم على وصف أبي بكر بأنه صاحب عزم ، ولكن في هذا الأمر الجسيم شيئاً أكثر من العزم . ارتدت العرب في أطراف الجزيرة كلها : في نجد واليمامة واليمن وعمان وتهامة اليمن والبحرين ومشارف الشام وغيرها ، وعهد الإسلام حديث على ما قالوا لأبي بكر ، والمسلمون في تلك الأيام عددهم قليل ، لا طاقة لهم بقتال أهل الردة ، فلو سمع أبو بكر نصيحة الذين نصحوه ولم يقاتل أهل الردة أو قبل منهم الصلاة وأغضى على الزكاة لتهاون العرب بالإسلام ، ورجعوا إلى دياناتهم القديمة ، ودفن الإسلام وهو في مهده ، لأنه لم يتمكن بعد من دخول القلوب والتبجح فيها ، فالقلوب عادة شديدة الشوق إلى ما ألفته في ماضيها ، يصعب عليها التروض على ألفة الأمور الحديثة ، وقد عرف أبو بكر هذه الأسرار النفسية ، وعرف أنه إذا تهاون بأهل الردة ذهب الإسلام والمسلمون ، فوقع في أمرين : إما قبول نصيحة المسامين وفيها ضعفة أركان الإسلام ونسخ هيبته في القلوب ، وإما مقاتلة أهل الردة وعددهم كثير ، والمسامون قليلون ، فاختر الأمر الثاني واستعان بالله ، خير له أن يقاتل في تأييد الإسلام وهو يرجو النصر من أن يحتمل بعض

ضعفته فتعم الردة المسلمين كلهم . فكان الخير في الذي هم به ،
على الرغم من المخاطرة التي خاطرها . ولقد استعمل أقصى الحكمة
في مقاتلة أهل الردة كما يتبين ذلك من الكتاب الذي كتبه
إليهم ، فقد أمر أمراء الجيش بالإحسان وبأن لا يقتلوا أحداً
ولا يقتلوه حتى يدعوه إلى داعية الله ، فمن استجاب لهم وأقر
وكف وعمل صالحاً قبلوا منه ومن أبى أمرهم أن يقتلوه وأن
لا يبقوا على أحد منهم قدروا عليه ، وأن يحرقوهم بالنار ويقتلوه
كل قتلة ، وأن يسبوا النساء والذراري ، وأن لا يقبلوا من أحد إلا
الإسلام . فعلى هذا الوجه ترك المرتدين سبيلاً إلى أعمال
الفكرة والروية ، ولم يفاجئهم بالقتال مفاجأة ، فلولا رأى أبي
بكر لذهب الإسلام وهو في صدر أمره ، والفضل في هذا الرأي
لشدة المعرفة بالنفوس والكشف عما تتطوى عليه .

وكثيراً ما كان عقلاء المسلمين يخافون الردة ويحسبون لها
حسابها . لما قتل أبو عبيدة الثقفي في حرب الفرس شق ذلك
على عمر بن الخطاب وعلى المسلمين ، فخطب عمر في الناس وحثهم
على الجهاد وأمرهم بالتأهب لأرض العراق ، وعسكر عمر وهو يريد
الشخص ، ودعا الناس فاستشارهم ، فأشاروا عليه بالمسير ، ثم قال

عليّ: ما ترى يا أبا الحسن! أسير أم أبعث؟ قال: سر بنفسك فإنه أهيب للعدو وأرهب له، فخرج من عنده، فدعا العباس في جلّ مشيخة قريش وشاورهم، فقالوا: أقم وابعث غيرك، ليكون للمسلمين إن انهزموا فئة، وخرجوا فدخل إليه عبد الرحمن بن عوف فاستشاره، فقال عبد الرحمن: فديت بأبي وأمي، أقم وابعث، فإن انهزم جيشك، فليس ذلك كهميمتك، وإنك إن تهزم أو تقتل يكفر المسلمون ولا يشهدوا أن لا إله إلا الله أبداً، ثم خرج فدخل عثمان عليه، فقال له: يا أبا عبد الله! أشر على أسير أم أقيم؟ فقال عثمان: أقم يا أمير المؤمنين، وابعث بالجيوش فإنه لا آمن أن أتى عليك آت أن ترجع العرب عن الإسلام ولكن ابعث الجيوش وداركها بعضها على بعض.

هذا خبر نقلته عن المسعودي مع شيء يسير من حذف ما لا صلة له بالموضوع الذي أخوض فيه، وجوهر الأمر في هذا الخبر الاستشارات التي استشارها عمر، وقد كان في أجوبة المستشارين وجه الصواب، فلم ينحرف علي عن الحق لما قال له: سر بنفسك فإنه أهيب بالعدو وأرهب له، ولم ينحرف العباس عن هذا الحق لما قال له: أقم وابعث غيرك ليكون للمسلمين إن انهزموا فئة،

ولسكن بعض شيوخ قریش نظروا إلى الأمر من وجه آخر، وربما كان نظرهم أبعد أفقاً، فقد كان لهم عبرة بالأحداث التي حدثت بعد وفاة النبي، فخافوا أن تحدث هذه الأحداث مرة ثانية، فقد ارتدت العرب بعد استخلاف أبي بكر بعشرة أيام، فخافوا أن ترتد العرب إذا قتل عمر في حرب الفرس، خاف عبد الرحمن بن عوف، إذا قتل عمر أن يكفر المسلمون ولا يشهدوا أن لا إله إلا الله أبداً. وخاف عثمان بن عفان إذا أتى على عمر آت أن ترجع العرب عن الإسلام. هذه سياسة موافقة للقواعد النفسية الموافقة كلها. لم يلق عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان بما ألقيا به من الآراء عبثاً، وإنما أدبتهما تجربة الماضي فانتفعوا بهذه التجربة. فلو قتل عمر في حرب الفرس لارتد العرب مرة ثانية، وربما كانت حرب أهل الردة في هذه المرة أشد على المسلمين من الأولى، فقد يهون أمر الإسلام وتكثر الجرأة على الرجوع عنه، لأن الإسلام حديث النشأة لم يأت عليه من الزمن ما يكفي لتأصله في القلوب. وقد ذكر المسعودي في تاريخه أن علي بن أبي طالب قد تسلل أصحابه في بعض حروبه ولحقوا بأوطانهم ومضى الحرث بن راشد الناجي في ثلاثمائة من الناس فارتدوا إلى دين النصرانية.

فإذا كان لأبي بكر فضل عظيم في تثبيت الإسلام بعد حرب
الردة ، فإن لعبد الرحمن بن عوف ولعثمان بن عفان ولبعض
شيوخ قريش مثل هذا الفضل في تحذيرهم عمر السير إلى العدو
بنفسه خوفاً من أن يقتل فترجع العرب عن الإسلام . ولم تخرج
آراؤهم عن الآفاق النفسية ، إنها صادرة عن خبرة تامة بنفوس
العرب ، مبنية على التجارب .

الشورى

ما هي مظاهر العناصر النفسية في أمر الشورى ؟

مرض رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، مرضه الذى قبض فيه فأمر أبا بكر أن يصلى بالناس ، فلم يزل أبو بكر يصلى بالناس حتى اليوم الذى مات فيه الرسول ، ثم كان من أمر السقيفة ما كان ، وجرى فيها من تنازع المهاجرين والأنصار ما جرى حتى تمت البيعة لأبي بكر .

ثم مرض أبو بكر المرض الذى مات فيه ، فاستخاف على المسلمين عمر بن الخطاب .

ثم طعن عمر فدخل المهاجرون عليه وهو فى البيت من جراحه وسألوه أن يستخاف عليهم ، فكيف كانت سبيله فى هذا الاستخلاف ؟

لم يخلُ استخلاف عمر على المسلمين من كثير من الحيرة والتردد ، فهو لم يشأ أن يحمل المسلمين جياً أو ميتاً ، ثم رأى أنه

إذا استخلف فقد استخلف من هو خير منه ، يعني أبا بكر ،
وإذا ترك الأمر فقد تركه من هو خير منه ، يعني النبي ، ثم رأى
أنه لو أدرك أبا عبيدة بن الجراح لاستخلفه وولاه ، ولو أدرك
معاذ بن جبل لاستخلفه ، ولو أدرك خالد بن الوليد لولاه ، وفي هذا
كله كثير من الحيرة . ثم رأى في عليّ بطلاً وفكاهة ، وفي طلحة
زهواً ونخوة ، وفي عبد الرحمن بن عوف صلاحاً مع ضعف ، ورأى
أن سعداً صاحب مقب و قتال ، لا يقوم بقرية لو حُمِلَ أمرها ،
ورأى أن الزبير لقيس ، مؤمن الرضى ، كافر الغضب ، شحيح ،
ورأى أن عثمان لو ولى الخلافة لحل قومه بنى أبي معيط على رقاب
الناس ، ثم سأل أن يدلوه على برّ تقي يوليه ، ثم صحّ عزمه
على أن يستخلف النفر الذين توفى رسول الله وهو عنهم راض ،
فجعل الخلافة شورى بين هؤلاء الستة من المهاجرين الأولين ،
وهم : علي وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد
بن أبي وقاص . ومنهم من حدث أن سعداً لم يكن في الشورى ،
أما عبد الله بن عمر فقد أدخله أبوه فيها على أنه خارج من الخلافة
وليس له إلا الاختيار .

كل هذا يدل على الارتباك ، ولقد كانت هذه الطريقة

سبيلاً إلى الخاصة ، فقد تشاح أصحاب الشورى على الخلافة وأخروا إبرام الأمر ورجا كل واحد منهم أن يكون خليفة ، حتى إن أبا طلحة بكى وقال : كنت أظن بهم خلاف هذا الحرص ، إنما كنت أخاف أن يتدافعوها ، فلقد طال تناجى القوم وتناظرهم ، ودفع كل واحد منهم صاحبه عنها وكاد يؤدي هذا الأمر إلى الفتنة ، فقد تطلع الناس إلى معرفة خليفةهم وإمامهم ، واحتاج من أقام لانتظار ذلك من أهل البلدان إلى الرجوع إلى أوطانهم .

ولسنا ندرى ما الذى حمل سيدنا عمر على الوقوع فى هذا الارتباك ، وقد كان قادراً على أن يستخلف أصلح القوم ، وهو يعرفهم واحداً واحداً ، ويعرف عيوبهم وفضائلهم ، ولكنه عدل عن ذلك . وإذا لجأت إلى الحرية فى الكلام قلت : خاف التبعة ففر منها ، فإن جعل الأمر شورى بين جماعة كل واحد منهم يريد الخلافة لنفسه مخالف للقواعد النفسية فى السياسية ، ولقد أنقذ الله المسلمين من فتنة الشورى وكانوا فى غنى عنها لو حزم عمر .

لاشك فى أن انتخاب الرعية لراعيا أو الأمة لرجال الحكم

فيها على تعبير هذا العصر إنما هو أرفع ما وصل اليه عقل البشر من أشكال الحكم الديمقراطي ، ولكن هذا النوع من الحكم لم يتكامل بعد في أيامنا هذه ، فجدير به أن يكون في أيام عمر أقل تكاملاً ، ففكرة عمر في أن يجعل أمر المسلمين شورى بين ستة يتزاحمون على الخلافة غلطة نفسية ، وقد أدرك معاوية هذه الغلطة ، ومثله لا يكاد يفوته شيء من أسرار السياسة النفسية ، فقد ذكروا أن زياداً أوفد ابن حصين إلى معاوية فأقام عنده ما أقام ثم إن معاوية بعث إليه ليلاً لئلا يخلوا به ، فقال له : يا ابن حصين ! قد بلغني أن عندك ذهناً وعقلاً ، فأخبرني عن شيء أسألك عنه ، قال : سألني عما بدا لك ، قال أخبرني ما الذي شئت أمر المسلمين وملائم وخالف بينهم ، قال : نعم ، قتل الناس عثمان ، قال : ما صنعت شيئاً ، قال : فمسير على إليك وقتاله إياك ، قال : ما صنعت شيئاً ، قال : فمسير طلحة والزبير وعائشة وقتال على إياهم ، قال : ما صنعت شيئاً ، قال : ما عندي غير هذا يا أمير المؤمنين ، قال : فأنا أخبرك ، إنه لم يشق بين المسلمين ولا فرق أهواءهم إلا الشورى التي جعلها عمر إلى ستة نفر ، وذلك أن الله بعث محمداً بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين

كله ولو كره المشركون ، فعمل بما أمر الله به ثم قبضه الله اليه
وقدم أبا بكر للصلاة ، فرضوه لأمر دنياهم إذ رضيه رسول الله
صلى الله عليه وسلم لأمر دينهم ، فعمل بسنة رسول الله صلى الله
عليه وسلم وسار بسيرته حتى قبضه الله واستخلف عمر ، فعمل بمثل
سيرته ، ثم جعلها شورى بين ستة نفر ، فلم يكن رجل منهم
إلا رجاها لنفسه ، ورجاها له قومه وتطلعت إلى ذلك نفسه ، ولو
أن عمر استخلف عليهم كما استخلف أبو بكر ما كان في ذلك
اختلاف .

هذا هو رأى المختمر ، فالشورى غلطة نفسية رحم الله من
غلطها ، ولا أرانى أخرج عن الموضوع إذا قلت إن مشكلة الحياة
النيابية في عصرنا هذا ، وهى شبيهة بأمر الشورى في عصر عمر بن
الخطاب ، لاتزال معضلة ، لم يتكامل أمرها بعد ، فقد ثار على
النظام النيابى في أوربة بعض المفكرين ، ورأوا أن أصل الأمر
في انهيار طائفة من أمم الغرب إنما هو النظام النيابى نفسه ،
ولا تزال في الشرق نعاى مفاصد هذا النظام الذى لم يتكامل ،
أفلا نجد أن الحياة النيابية في بلادنا تحرم هذه البلاد في كثير
من الأحيان الانتفاع بعبقرية غير قليل من العلماء والفلاسفة

والأدباء ومن هم في هذه الطبقات المستنيرة ، فلا يشتركون في حكم الأمة ولا يرجع إلى رأيهم في سياستها، وذلك لأنهم بعيدون عن الميادين الانتخابية فلا يخوضون مسالكها الوعرة، إمامنا من باب الحرص على كراماتهم لأنهم يترفعون عن هذه الأحقاد الحزبية التي تتأجج نيرانها في أثناء الانتخابات، وإمامنا من باب النفرة من المظاهر الخداعة ، فإن علمهم المبني على الحقيقة وحدها قد نزههم عن استعمال الأساليب المبنية على شيء آخر غير الحقيقة مما يستعمل في غرض الانتخابات ، فإن اللجوء إلى ألفاظ مشهورة في الحياة النيابية يلجأ إليها أصحابها في الميادين الانتخابية للظفر بنياياتهم ، ثم تنقضى معارك الانتخاب وإذا بهذه الألفاظ تتلاشى ولا حقيقة من ورائها — أقول إن اللجوء إليها مما يترفع عنه العلماء والفلاسفة والأدباء فلا يرفع لهم صوت في المجالس النيابية ولا يكون لآرائهم السديدة تأثير .

فإذا كان أمر الشورى في أيامنا هذه لا يزال مفتقراً إلى كثير من الإصلاح حتى يكون كاملاً نافعاً فكيف كان هذا الأمر في أيام عمر بن الخطاب ؟ فقد أصاب معاوية كل الإصابة لما قال إن الشورى هي التي شتت بين المسلمين وفرقت أهواءهم ، وهي

التي لاتزال تشتت بين بلادنا وتفرق أهواء أهل البلاد . ولقد سبقت الإشارة إلى أن الشورى إنما هي شبيهة بالحياة النيابية في هذا العصر ، وأظن أن القارىء يدرك أنى لا أطلق هذا القول إطلاقاً ، فإن الفرق بين ستة رجال يجتمعون لينتخبوا من بينهم خليفة ، وبين أمة تجتمع بمخازيرها لتنتخب نواباً ورجال حكومة واضح جداً ، إنه فرق كبير ، ولكنى لجأت إلى هذه المقارنة لأن المحاذير في الأمرين متقاربة ، فالشورى في القديم كانت غلطة نفسية فنشأ عنها شتات المسلمين وفرقة أهوائهم ، والحياة النيابية في الحديث ينشأ عنها في بعض الأمم سوء التصرف في السياسة والإدارة والخروج على القوانين والأحكام وغير ذلك مما لا مجال إلى التبسط فيه ، على أن قليلاً من تعديل النظام النيابى في فريق من الشعوب يعود بهذا النظام إلى محاسن عواقبه في الأمم .

على بن أبي طالب

إذا ثبتت الحاجة إلى معرفة الأمور النفسية في سياسة أحد من العمال والخلفاء فما ثبتت هذه الحاجة مقدار ثبوتها في سياسة على بن أبي طالب كرم الله وجهه ، رأى لنفسه حقاً في الخلافة ، فصرح بهذا الحق ولم يجمع ، سألته قوم عن أبي بكر وعمر وعثمان ما يقول فيهم ، فلم يكتم أسرار نفسه ، فقد مضى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فتنازع المسلمون الأمر بعده ، فأقسم على الله أنه ما كان يلقي في روعه ولا يخطر على باله أن العرب تعدل بهذا الأمر عنه ، فما راعه إلا إقبال الناس على أبي بكر ، وإجفاله إلية ، فأمسك يده ، ورأى أنه أحق بمقام محمد في الناس ممن تولى الأمور عليه ، فلبث بذلك ما شاء الله حتى رأى راجعة من الناس رجعت عن الإسلام يدعون إلى محو دين محمد وملة إبراهيم عليهما السلام ، فخشى إن لم ينصر الإسلام وأهله أن يرى في الإسلام تلاماً وهدماً تكون المصيبة به عليه أعظم من فوت ولاية أمر الناس

التي هي متاع أيام قلائل ، ثم يزول ما كان منها كما يزول
 السراب ، فمشى عند ذلك إلى أبي بكر فبايعه ونهض معه في
 تلك الأحداث حتى زهق الباطل وكانت كلمة الله هي العليا ،
 فتولى أبو بكر تلك الأمور ، فيسر وسدد وقارب واقتصد ،
 فصحبه مناصحاً وأطاعه فيما أطاع الله فيه مجاهداً .

هذا شيء من كلام كتبه على إلى أهل العراق ، ووددت لو
 يتسع المقام لذكر الكلام كله ، على أن في الإشارة إلى هذا القدر
 منه دليلاً واضحاً على تصريحه بحقه في الخلافة ، وفي بقية
 الكلام دليل أوضح ، فإن الذي يقول في طلب الخلافة لقوم من
 الناس عابوه بحرصه عليها : أنتم أحرص ! أما أنا إذ طلبت
 ميراث ابن أبي وحقه وأنتم دخلتم بيني وبينه ، وتصرفون وجهي
 دونه ، اللهم إني أستمع بك على قريش ، فإنهم قطعوا رحمي
 وصغروا عظيم منزلتي وفضلي واجتمعوا على منازعتي حقاً كنت
 أولى به منهم ثم قالوا : اصبر كدأ وعش متأسفاً ، إن الذي يقول
 مثل هذا القول لا يعرف في السياسة إلا الصراحة ، فليست
 السياسة في نظره لطفاً في حيلة ، أو رفقا في مدخل ومخرج ،
 ومن كان هذا شأنه فيها ، فمقامه فيها حرج ، لم تكن معرفته

بالأمور النفسية على قدر صراحتة ، فإذا لم تنجح سياسته النجاح كله ، فهذا سببه أنه لم يخطر على باله أن طلب الحقوق يستلزم كثيراً من حسن الموارد والمصادر ، فليس كل صاحب حق في هذه الدنيا بواصل إلى حقه على مثل هذه السبيل .

من بعض كلامه : لا يزيدني كثرة الناس حولي عزة ، ولا تفرقهم عني وحشة ، لأنني محق فهذا كلام رجل لا يبالي بأساليب السياسة في طلب الحق ، ولا يهتم بروح الجماهير ، فكثرة الناس في رأيه وقتلهم سواء ، وليس الأمر كذلك في قواعد السياسة ، فإن للكثرة فيها شأناً ، ومن يقبل عليه الرجال فيها غير من يدبرون عنه ، ففي معظم أحوالها كثرة الناس حول رئيس من رؤسائها عزة ، وقتلهم وحشة ، وهذه أمور يصعب على سيدنا على الاعتراف بها حتى قلت هذه الصعوبة الناس حوله .

وكما صعب عليه إدراك أمرار السياسة من حيث الكثرة والقلة فيها ، فقد صعب عليه إدراك هذه الأمرار من حيث عمل المال في الجماعات ، قام رجال من أصحابه فقالوا له : يا أمير المؤمنين ! أعط هؤلاء هذه الأموال وفضل هؤلاء الأشراف من العرب وقرش على الموالى ممن يتخوف خلافه على الناس وفراقه ، فإذا

استقام لك ما تريد عدت إلى أحسن مما كنت عليه من القسم ،
فقال على : أتاُمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه
من الإسلام ، فوالله لا أفعل ذلك ما لاح في السماء نجم !
لم يدرك نضر الله عظامه ، أن الناس عامة إنما همهم حُطام
هذه الدنيا ، فكان يعز عليه أن يعتقد أن الناس يدورون كيف
دارت مصالحهم ومنافعهم ، فلم يعاملهم كما يجب أن يعاملهم رجل
السياسة وإنما عاملهم كما يعاملهم رجل الأخلاق ، فكان من
عواقب هذه المعاملة شكواهم منهم في كل كلام وفي كل خطبة .
وعلى كل حال إذا قل نصيبه من معرفة نفوس البشر على حقائقها
ومن قرنه السياسة بهذه المعرفة فلم يقل نصيبه من غير هذه الفضائل
على أنا نظلم علياً إذا جردناه تجريداً من علم النفس ، ولا
بأس بأن أذكر بعض أمور تدل على خبرة بالنفوس .

لما رفعت المصاحف على الرماح في وقعة صفين ، وسأين هذه
الخدعة في الفصل الآتي ، رفعها أهل الشام برأى عمرو بن
العاص حتى يخفوا عنهم من شدة القتال ، وقال أهل العراق
لعلي : قد أعطاك معاوية الحق ، دعاك إلى كتاب الله فاقبل
منه ، قال على : ويحكم ! مارفعوها لأنكم تعلمونها ولا يعلمون

بها ، ومارفعوها لكم إلا خديعة ودهاء ومكيذة ...

فهذا كلام رجل لا يجهل غش الناس وخديعتهم . ومما يدل على ذلك تأنيبه لأهل العراق بعد أن بلغه من أمر أبي موسى وعمره ما بلغه ، فقد قال لهم : إني كنت تقدمت إليكم في هذه الحكومة ونهيتكم عنها فأبىتم إلا عصياني ، فكيف رأيتم عاقبة أمركم إذ أبىتم عليّ ! والله إني لأعرف من حملكم على خلافي والترك لأمرى ولو أشاء أخذه لفعلت ولكن الله من ورآئه .

أجل ، إنا نظلم عليا إذا جردناه من معرفة الناس وبواطنهم ، وهذا أمر آخر يدل على هذه المعرفة ، لما تعاهد ثلاثة من الخوارج على قتل علي ومعاوية وعمر بن العاص ، مما هو معروف في التاريخ ، دس معاوية أناساً إلى الكوفة يشيعون موته ، وأكثر الناس القول في ذلك حتى بلغ علياً فقال في مجلسه : قد أكثرتم من نعي معاوية ، والله ما مات ولا يموت حتى يملك ما تحت قدمي ، وإنما أراد ابن آكلة الأكباد أن يعلم ذلك مني ، فبعث من يشيع ذلك فيكم ليعلم ويتيقن ما عندي فيه ، وما يكون من أمره في المستقبل من الزمان .

فليس بقليل أن يهتدى على إلى معرفة هذه النواحي الغامضة

في سياسة عدوه ، إلا أنه كان قليل الحظ من الاستفادة من
 المعرفة النفسية في السياسة . ذكر ابن قتيبة أن الزبير وطلحة
 أتيا علياً بعد فراغ البيعة فقالا . هل تدري على م بايعناك يا أمير
 المؤمنين ؟ قال على : نعم ، على السمع والطاعة وعلى ما بايعتم عليه
 أبا بكر وعمر وعثمان ، فقالا : لا ، ولكننا بايعناك على أنا شريكك
 في الأمر ، قال على : لا ، ولكنكما شريكان في القول والاستقامة
 والعون على العجز والأولاد ، وكان الزبير لا يشك في ولاية
 العراق ، وطلحة في ولاية اليمن ، فلما استبان لهما أن علياً غير
 موليهما شيئاً أظهرتا الشكاة . فتكلم الزبير في ملائ من قريش ،
 فقال : هذا جزاؤنا من على ، قمنا له في أمر عثمان حتى أثبتنا عليه
 الذنب وسببنا له القتل وهو جالس في بيته وكفى الأمر ، فلما نال
 ما أراد جعل دوننا غيرنا ، فقال طلحة : ما اللوم إنا كننا ثلاثة
 من أهل البشورى ، كرهه أحدنا وبايعناه وأعطيناه ما في أيدينا
 ومنعنا ما في يده ، فأصبحنا قد أخطأنا ما رجونا ، فانهى قولهما
 إلى على ، فدعا عبد الله بن عباس ، وكان استوزره ، فقال له :
 بلغك قول هذين الرجلين ، قال : نعم ، بلغني قولهما ، قال : فما
 ترى : قال : أرى أنهما أحبا الولاية ، فول البصرة الزبير وول

طلحة الكوفة فإنهما ليسا بأقرب إليك من الوليد وابن عامر من
 عثمان ، فضحك على ثم قال : ويحك ! إن العراقيين بهما الرجال
 والأموال ، ومتى تملكنا رقاب الناس يستميلنا السفيه بالطمع
 ويضربا الضعيف بالبلاء ، ويقويا على القوى بالسلطان ، ولو
 كنت مستعملا أحداً لضره ونفعه لاستعملت معاوية على الشام ،
 ولولا ما ظهر لى من حرصهما على الولاية لكان لى فيهما رأى .
 قد يحار الفكر فى أقوال الرجلين : على وابن عباس ، أما
 عبد الله بن عباس فلا شك فى أنه كان من الناصحين لعلى ، فإن
 فى توليتهما الكوفة والبصرة ما يكفى عايئاً شرهما ، والدليل على
 ذلك أنهما لما قطعاً أمههما من الولاية توجهتا نحو البصرة وأظهرا
 الخلاف ونكثتا البيعة وتبعهما على ذلك خلق كثير ، وأما على
 فقد كان على حق فى سوء ظنه بهما فإنهما إذا ملكا رقاب الناس
 طمعا فى شئ أبعد من ذلك ، ولكمه كان يستطيع أن ينجو منهما
 بتوليتهما بلاداً ليس لهما فيها طمع فى استمالة الناس

ومن هذا الشكل ما رواه المسعودى : فقد أتى المغيرة بن شعبه
 علياً فقال له : إن حق الطاعة النصيحة وإن رأى اليوم تحوز به
 ما فى غدٍ ، وإن التصارع اليوم تضع به ما فى غدٍ ، أقرر معاوية

علي عمله ، وأقرر ابن عامر على عمله ، وأقرر العمال على أعمالهم ،
 حتى إذا أنتك طاعتهم وطاعة الجنود استبدلت أو تركت ، قال :
 حتى أنظر ، فخرج إليه وعاد من الغد ، فقال : إني أشرت عليك
 بالأمس برأى وتعمقته ، وإنما الرأي أن تعالجهم بالنزع فتعرف
 السامع من غيره ، ويستقل أمرك ، ثم خرج ، فلتقاه ابن عباس
 خارجاً وهو داخل ، فلما انتهى إلى علي قال : رأيت المغيرة
 خارجاً من عندك ، فقيم جاءك ؟ قال : جاءني أمس بكييت
 وكييت وجاءني اليوم بذيت وذيت ، فقال : أما أمس فقد نصحك
 وأما اليوم فقد غشك .

لا شك في أن المغيرة قد نصح علياً في المرة الأولى ، وقد
 شعر بهذا النصيح ابن عباس ، ولئن تردد علي في السماع من المغيرة
 لما كان ينبغي له أن يتردد في السماع من ابن عباس ، فإن إقرار
 العمال على أعمالهم في بدء الأمر ريثما يتوثق علي من سياطانه تدبير
 إداري على مصطلح هذا العصر ، وخاصة أن علياً حديث العهد
 بالخلافة ، وخلافته مخوفة بالمكاره ، فلو أقر العمال على أعمالهم
 لا طمأنات قلوبهم بعض الأطمئنان ، فلا تحدثهم هذه القلوب
 بشيء من الثورة عليه ، حتى إذا تكاملت هذه الطمأنينة واشتد

سطلان على فعل ما أراد ، ولم يخطيء المغيرة فإنه أحد دهاة العرب، فهو يعرف مقادير الرجال، ونصيحته لعل دليل قاطع على هذه المعرفة ، وقد أيد هذا النصيح رأى ابن عباس ، ولكن علياً تهاون بآرائهما ، فوقع ما وقع مما لا مجال للخوض فيه ، وإنما الذى وقع كان نتيجة غلطات نفسية غلطها سيدنا على .

خدعة المصاحف

بلغ من معرفة الأمور النفسية في السياسة أن هذه المعرفة كانت في بعض الأحيان سبباً في إنقاذ من هزيمة فيها ضياع الملك كما وقع في حرب صفين ، إني في غنى عن ذكر تفاصيل هذه الحرب ، ولكن الذي لا أجد لي مندوحة عن ذكره إنما هو الأمر الأخير فيها .

أشار ابن قتيبة إلى أن أهل العسكرين ، عسكر على وعسكر معاوية ، باتوا بشدة من الألم ، ونادى على أصحابه ، فأصبحوا على راياتهم ومصافهم ، فلما رآهم معاوية وقد برزوا للقتال قال لعمر بن العاص : يا عمرو ! ألم تزعم أنك ما وقعت في أمر قط إلا وخرجت منه ، قال : بلى ، قال أفلا تخرج مما ترى ؟ قال ، والله لأدعونهم إن شئت إلى أمر أفرق به جمعهم ، ويزداد جمعك إليك اجتماعاً ، إن أعطوكه اختلفوا ، وإن منعوكم اختلفوا ، قال معاوية : وما ذاك ؟ قال عمرو : تأمر بالمصاحف فترفع ، ثم

تدعوهم إلى ما فيها ، فوالله لئن قبله لتفترق عنه جماعته ، ولئن رده ليكفرنه أصحابه ، فدعا معاوية بالمصحف ثم دعا رجلا من أصحابه يقال له ابن هند ، فنشره بين الصفين ، ثم نادى : الله الله ! في دماننا ودمائكم لبقية ، بيننا وبينكم كتاب الله ، فلما سمع الناس ذلك ثاروا إلى على فقالوا : قد أعطاك معاوية الحق ودعاك إلى كتاب الله ، فاقبل منه ، ورفع صاحب معاوية المصحف وهو يقول : بيننا وبينكم هذا المصحف ، ثم تلا : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يُدْعَوْنَ إلى كتاب الله ليحكم بينهم ، ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون » ثم نادى : من لفارس ! من الروم ! وفي رواية المسعودي : من لثغور الشام بعد أهل الشام ! ومن لثغور العراق بعد أهل العراق ! ومن لجهاد الروم ! ومن للترك ! ومن للكفار ! ورفع في معسكر معاوية نحو من خمسمائة مصحف ، فقال الأشعث لعلی : والله لاناقي هذه أبداً ونرضى معك أو نقاتل معك ، وتابعه أشراف أهل اليمن وركنوا إلى الصلح وكرهوا القتال ، ثم نشأ أمر الحكيم والتحكيم مما هو مشهور .

يقول بمض رجال التاريخ : هذه خديعة المصاحف ، لا شك في أنها خديعة ، ولكنها خديعة مؤسسة على معرفة نفسية ، وهذا هو الوجه الذي يهمننا فيها ، فإن الذي فطن لها كان عارفاً بنفوس القوم المعرفة كلها ، لقد كان مع علي في حرب صفين صحابة من بدر ، وغيرهم من المهاجرين والأنصار ، وهم أهل دين متين ، فإنهم إذا رأوا المصاحف مرفوعة على الرماح عرفوا هذا الرمز ، فذكروا الله وخافوه ، وعمرو بن العاص كان يعلم هذا الخوف منهم ، وعلمه هو الذي فتق له حيلة المصاحف ، ومن جهة ثانية فإن القوم ملوا القتال وسئموا ، وقد وردت في كتب التاريخ أقوال كثيرة قيأت لعل تدل على هذا الملل

ولقد كثر القتل في العسكرين ، حتى ضجر الناس من القتال ، ولا ريب في أن عمرو بن العاص قد شعر بهذا الضجر من قبل القوم ، فاستند إليه ، فكأنه كان ينظر إلى بواطن الفريقين حين مرت بذهنه خديعة المصاحف ، وعلى كل حال فإن هذه الخديعة التي أوحى إلى صاحبها بها علم النفس كان فيها حقن دماء المسلمين ، وخديعة فيها منتهى حرب ومنتهى دماء إنما هي خديعة خير .

معاوية بن أبي سفيان

ما أظن أن أحداً من العمال والخلفاء تمكن من معرفة النفوس
 تمكن معاوية من هذه المعرفة ، فلا يخفى عليه أمر من أمور
 الأفراد والجماعات والدول ، ولا تشكل عليه طبائع أهل
 البلاد ، وهذا التعمق في معرفة النفوس هو الذي مهد لسياسته
 السبيل إلى طول مدتها ، فليس بالأمر الهين أن يقضى عشرين
 سنة عاملاً ، وعشرين سنة خليفة ، ولقد استطاع بفضل نصيبه
 من علم النفس أن يجتنب كثيراً من الشر ، فهو يعرف من
 يحيط به من الناس ، ويعرف كيف يخاطبهم ويعاملهم ، ويعلم
 طبائع البلاد التي انبسط سلطانه عليها ، فساس هذه البلاد على
 قدر علمه بطبائعها ، ولو شئت أن أخوض في الأخبار الصغيرة
 والكبيرة التي تدل على وفور نصيبه من علم النفس لامتد بي
 نفس الكلام ، وحسبي التنبيه على أن له عيناً تنفذ إلى القلوب
 فترى ما يحس به كل قلب منها ، وأن له أذناً تسمع ما تسره

هذه القلوب ، فلا يسأل أحداً سؤالا إلا عرف من فوره في جوابه ما يرمى إليه في هذا الجواب من نصيح أو غش ، فلا يأتيه الغش من بين يديه ولا من خلفه ، وإذا بلغ رجل السياسة هذا المبلغ من المعرفة النفسية استقامت له أموره على ما يحب ويشتهي ، ولم يقتصر معاوية على التجارب وحدها في سياسته النفسية ، فقد كان يسمر إلى ثلث الليل في أخبار العرب وأيامها والعجم وملوكها وسياساتها لرعيتهما ، وسائر ملوك الأمم وحروبها ومكايدها وسياساتها لرعيتهما ، ثم كان يدخل فينام ثلث الليل ، ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها ، والحروب والمكايد ، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون ، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها ، فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات ، فلم يدرك معاوية الملك بالمنى ، ولكنه أدرك هذا الملك بأمور كثيرة ، في مقدمتها التجربة والعلم ، وأظن أن ضرب الأمثال من نماذج سياساته هو الذي يقرب صورته من العيون .

مرة كان ذهنه يبادر إلى معرفة ما تضره القلوب في بواطنها ، فقد دعا مروان بن الحكم فقال له : أشر علىّ في الحسين ، فقال

مروان : تخرجه معك إلى الشام ، فتقطعه عن أهل العراق ،
وتقطعهم عنه ، فقال معاوية : أردت والله أن تستريح منه
وتبتليني به ، فإن صبرت عليه صبرت على ما أكره ، وإن
أسأت إليه كنت قد قطعت رحمه ، فأقامه .

أفيري القاريء الكريم كيف يدرك معاوية أسرار النفوس
من ظواهر الكلام ، وهذا الإدراك هو الذي نجاه من غش
أهل الغش وإذا قدر رجل السياسة على السلامة من غش أهل
الغش . قدر على السلامة من ورطات كثيرة .

ومرة كان علمه بنفوس البشر يحمله على التجاهر والانخداع ،
ذكر صاحب الأغاني أن ابن الزبير الشاعر لما هرب من
عبد الرحمن بن أم الحكم إلى معاوية أحرق عبد الرحمن داره ،
فتظلم منه ، فقال : أحرق لي داراً بمائة ألف درهم ، فقال معاوية :
ما أعلم بالكوفة داراً أنفق عليها هذا القدر ، فمن يعرف صحة
ما ادعيت ، قال : هذا المنذر بن الجارود حاضر ويعلم ذلك ،
فقال معاوية للمنذر : ما عندك في هذا ، قال : إني لم آبه لنفقتة
على داره ومبلغها ، ولكني لما دخلت الكوفة وأردت الخروج
عنها أعطاني عشرين ألف درهم وسألني أن أبتاع له بها ساجاً

من البصرة ، ففعلت ، فقال معاوية : إن داراً اشترى لها ساج
بعشرين ألف درهم لحقيقة أن يكون سائر نفقتها مائة ألف درهم
وأمر له بها ، فلما خرجا أقبل معاوية على جلسائه ثم قال لهم :
أى الشيخين عندكم أكذب ! والله إنى لأعرف داره ، وماهى
إلا خصائص قصب ، ولكنهم يقولون فنسمع ، ويخادعوننا
فننخدع ، فجعلوا يعجبون منه .

ليس فى كذب هذين الشيخين : الشاعر عبد الله بن الزبير
والمؤذر بن الجارود شيء من العجب ، ولا فى فطنة معاوية لهذا
الكذب شيء من البراعة ، ولكن البراعة كل البراعة فى
استعداد معاوية لسماع الكذب وهو عالم به ، وفى الخداعه وهو
شاعر بالخديعة ، حتى ظن الشيخان أنه صدقهما وأنهما غشاه ،
وهذا أسلوب من أساليب معاوية فى سياسة الناس ، يعلم
بالكذبة فينزلهما منزلة الصدق ، ويعلم بالخديعة فيجعلها محل النصيح ،
يتجاهل حين التجاهل ، وينخدع حين الانخداع ، بحسب مقتضى
الحال ، ولولم يفعل هذا وأشباهه لما وجد مدخلا على قلوب
الناس ، وتمكناً من هذه القلوب ، فليس فى كل وقت يجوز
خليفة مثل معاوية تكذيب اللاحثين إليه ، فقد يضطر فى بعض

الأحوال إلى النزول إلى مراتب تفكير الناس وحيلهم ومداخلهم
ومخارجهم حتى يتم أنسهم به ، ويكمل اطمئنانهم إليه ، ولولا
هذا النزول لاشتدت الوحشة منه ، وهذا مذهب لا يحذقه إلا
معاوية أو من كان مثل معاوية في سياسة الناس !

ومن هذا النمط خبر قرأته في مروج الذهب في خلال كلام
المسعودي على حسن الاستماع إلى الملوك ، فقد كان يزيد بن
شجرة يسامر ذات يوم معاوية ، وكان آنساً به وإلى حديثه
ثاقفاً ، ومعاوية مقبل عليه ، يتحدث عن يوم كان ابني مخزوم
وغيرهم من قريش ، وقد فنى في تلك الحرب خلق من الناس ،
وكان معاوية معجباً بهذا الحديث ، فبينما هو يتحدث به يزيد بن
شجرة ويزيد مقبل عليه وقد استخفتهما لذة الحديث والمستمع ،
إذ صك جبين يزيد بن شجرة حجر عائر ، فأدماه فجعلت الدماء
تسيل على وجهه ولحيته وثوبه وغير ذلك ، ولم يتغير عما كان
عليه من الاستماع ، فقال له معاوية : لله أنت يا ابن شجرة ! أما
ترى ما نزل بك ! قال : وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ قال : هذا
دم يسيل على ثوبك ، فقال : أعتق ما أملك إن لم يكن حديث
أمير المؤمنين ألهاني حتى غمر فكري وغطى على قلبي ، فما شعرت

بشيء مما حدث حتى نهى عليه أمير المؤمنين ، فقال معاوية :
لقد ظلمك من جعلك في ألف من العطاء وأخرجك من عطاء
أبناء المهاجرين والجماهير ممن حضر معنا بصفين ، ثم أمر له وهو
في سيزه بخمسمائة ألف درهم وزاده في عطائه ألفاً من الدراهم
وجعله بين جلده وثوبه .

وقد قال بعض أهل المعرفة والأدب في هذا الخبر أقوالاً ،
فمنهم من رأى أن يزيد بن شجرة قد خدع معاوية بكلامه حتى
انخدع فكان أفطن من معاوية ، ومنهم من رأى أن يزيد بن شجرة
كان بليداً في كلامه ، فلا يستحق هذا العطاء من قبل معاوية
على مثل هذه البلادة ، وعندى أن يزيد بن شجرة أراد بمثل هذا
الكلام أن يدخل السرور على قلب معاوية ، وقد كانت حركته
تفصح عن شيء غير قليل من حسن الأدب ، ولكن انخداع
معاوية يفصح عن فطنة أبلغ .

وكما كان معاوية عالماً بنفوس الأفراد كان عالماً بنفوس الجماعات
وأخلاقهم وطبائعهم ، فقد خبر بني هاشم أتم خبر ، حتى عرف
ظواهرهم وبواطنهم ، ووقف على عيوبهم وفضائلهم ، فكانت
هذه المعرفة أكبر عون له على نجاح سياسته .

بعث معاوية في سنة أربعين بسر بن أرطاة إلى المدينة ومكة
والذين يتعقب شيعة علي ويدعو الناس إلى طاعته ، ويوطد له
الأمر ، فلما وصل إلى اليمن كان بها عبيد الله بن العباس فخرج عنها
ولحق بعلي ، وخلف ابنه عبد الرحمن وقثم عند أمهما جويرية
بنت فارط الكنانية ، فقتلها وقتل معها خالاً لها من ثقيف ،
وقد تكلم أبو الفرج الأصبهاني على قتل بسر لهذين الصبيين فقال :
لما كانت الجماعة واستقر الأمر على معاوية دخل عليه عبيد الله
بن العباس وعنده بسر بن أرطاة ، فقال له : أنت قاتل الصبيين
أيها الشيخ ؟ قال بسر : نعم أنا قاتلها ، فقال عبيد الله : أما والله
لوددت أن الأرض كانت أنبتني عندك ، فقال بسر : قد أنبتك
الآن عندي ، فقال عبيد الله : ألا سيف ! فقال له بسر : هاك
سيفي ! فلما أهوى عبيد الله إلى السيف ليمتناوله أخذه معاوية ثم
قال لبسر : أخزأك الله شيخاً ، قد كبرت وذهب عقلك ، وذلك
رجل من بني هاشم قد وترته وقتلت ابنه ، تدفع إليه سيفك ؟
إنك لغافل عن قلوب بني هاشم ، والله لو تمكن منه لبدأ بي
قبلك ! فقال عبيد الله : أجل والله ! وكنت أثني به .
لا يتسع المجال للخوض في حرب علي ومعاوية ، فقد جرى

في هذه الحرب كثير من الدماء حتى استقر الملك لمعاوية ، وليس بالأمر اليسير أن ترضى بنو هاشم عن معاوية بعد أن غلبهم على الملك ، فليس على قلوبهم شيء من الغضاظة إذا رسمت فيها كراهية معاوية ، إنما المهم في هذا كله أن معاوية لم يغفل عن هذه القلوب التي لم تنس ما فعله بها ، فلم يخذعه منها ظاهراً ولا باطناً ، وقد أدت معرفته بهذه الظواهر والبواطن إلى حفظ حياته ، فلو تمكن عبيد الله بن العباس من تناول سيف بسر لما أبقى على بسر ولا على معاوية ، وفي مقام مثل هذا المقام ما أقل العيون التي تتغلغل إلى القلوب فتنزع منها أسرارها ، فلو لم تكن لمعاوية عين تصل إلى غوامض القلوب وحملته مرتبته من الخلافة على الاستخفاف برجل مونتور لذهبت حياته .

وكما دل هذا الخبر على معرفة معاوية بقلوب بني هاشم فقد يدل الخبر الآتي على معرفته بألسنتهم ، قال ابن عبد ربه : بينما معاوية بن أبي سفيان جالس في أصحابه إذ قيل له : الحسن بالباب ، فقال معاوية : إن دخل أفسد علينا ما نحن فيه ، فقال له مروان ابن الحكم : ائذن لي فأني أسأله ما ليس عنده فيه جواب ، فقال معاوية : لا تفعل فإنهم قوم قد ألهموا الكلام ، وأذن له ، فلما

دخل وجلس قال له مروان : أسرع الشيب إلى شاربك يا حسن
ويقال إن ذلك من الخرق ، فقال الحسن : ليس كما بلغك ،
ولكننا معشر بني هاشم أفواهنا عذبة شفاهها ، فنساؤنا يقبلن
علينا بأنفاسهن وقبلن ، وأنتم معشر بني أمية فيكم بخر شديد ،
فنساؤكم يصرفن أفواههن وأنفاسهن عنكم إلى أصدائكم ، فإنما
يشيب منكم موضع العذار من أجل ذلك ، ثم قال له مروان قولاً
خشفاً وسمع من الحسن جواباً أخشن ، حتى غضب معاوية وقال :
قد كنت أخبرتك فأيتهم حتى سمعتم ما أظلم عليكم بيتكم وأفسد
عليكم مجلسكم .

فقد كانت معرفة معاوية بهذه الأسرار النفسية مجنناً له يتقى
به كثيراً من الشر ، ولولا هذه المعرفة لوقع في ورطات لا مخارج منها .
ولم يكن علمه بأسرار الأمم أقل من علمه بأسرار نفوس الأفراد
والجماعات . لما قدم الشام عمر بن الخطاب قدم على حمار ومعه
عبد الرحمن بن عوف على حمار ، فتلقاهما معاوية في موكب ثقليل ،
فجاوز عمر حتى أخبر فرجع إليه ، فلما قرب منه نزل إليه ، فأعرض
عمر عنه ، فجعل معاوية يمشي إلى جنبه راجلاً ، فقال عبد الرحمن
بن عوف لعمر : أتعبت الرجل ، فأقبل عليه عمر فقال : يا معاوية

أأنت صاحب الموكب آنفاً ، مع ما بلغني من وقوف ذوى الحاجات
 ببابك ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : ولم ذاك ؟ قال : لأننا
 في بلد لا نمتنع فيه من جواسيس العدو ، ولا بد لهم مما يرهبهم
 من هيبة السلطان ، فإن أمرتني بذلك أقمت عليه ، وإن نهيتني
 عنه انتهيت ، فقال : لئن كان الذي تقول حقاً فإنه رأى أريب ،
 وإن كان باطلاً فإنها خدعة أديب ، وما أمرك به ولا أنكاه عنه
 فقال عبد الرحمن بن عوف : لحسن ما صَدَّر به هذا الفتى عما
 أوردته فيه ، فقال : لحسن موارده جشمناه ما جشمناه .

تنطوى هذه الرواية التي رواها يزيد عن أبيه على أشياء
 كثيرة . فهي تصور لنا استعداد معاوية للتلون بألوان البيئة التي
 يحلها ، وقد كانت بيئة الشام في عهده تعودت أبهة الروم وثقل
 مواكبهم ، فما أحب معاوية أن يبطل هذه العادة ، فجأى
 الروم في هذه الأبهة وفي هذه المواكب ، ونقل الملك من الخشونة
 إلى النعيم ، فالناس عادة مأخوذون بالظواهر ، مولعون بمناسظر
 العظمة ، تؤثر في حواسهم ، وتعمل في قلوبهم ، وقد انتفع معاوية
 بهذه المعرفة النفسية ، فحرص على العظمة في سلطانه ، تقريراً للعادة
 التي تعودها أهل الشام وإرهاباً للعدو ، وهذه أمور لا تخرج عن

الآفاق النفسية ، فكانت سياسة معاوية بنت هذه الآفاق ،
وهذه السياسة هي التي حملت خليفة مثل عمر بن الخطاب على
الاعتراف بحسن مصادره وموارده حتى جشمه ما جشمه ، وقد
كان قبله أبو عبيدة بن الجراح عاملاً لعمر على الشام ، وكان يظهر
للناس وعليه الصوف الجافى ، فعذل على ذلك وقيل له : إنك
بالشام ، ووالى أمير المؤمنين ، وحولنا الأعداء ، فغير من زيك ،
وأصلح من شارتك ، فقال : ما كنت بالذى أترك ما كنت عليه
فى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وخلاصة القول : كان معاوية عارفاً بنفوس الأفراد والجماعات
والأُمم ، ولما حضرته الوفاة ويزيد غائب دعا بمسلم بن عقبة المري
والضحاك بن قيس الفهرى وقال لهما : أبلغا عنى يزيد وقولا له :
انظر أهل الحجاز فهم عصابتك وعترتك ، فمن أتاك منهم فأكرمه ،
ومن قعد عنك فتعاهده ، وانظر أهل العراق فإن سألوك عزل
عامل فى كل يوم فأعزله عنهم ، فإن عزل عامل واحد أهون
عليك من سل مائة ألف سيف ثم لا تدري علام أنت عليه
منهم ، ثم انظر أهل الشام فأجعلهم الشعاردون الدثار ، فإن رابك
من عدو ريب فارمه بهم ، فإن أظفرك الله فاردد أهل الشام إلى

بلادهم ، لا يقيموا في غير بلادهم ، فيتأدبوا بغير آدابهم ، لست أخاف عليك غير عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير والحسين بن علي ، فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وقذه الورع ، وأما الحسين فأرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه ، وأما ابن الزبير فإنه خب خب ، فإن ظفرت به فقطعه إرباً إرباً .

فهذا كله يدلنا على أن معاوية لم تبهم عليه طبائع أهل البلاد التي تولى مقاليد أمورها ، فكان يعرف طبائع أهل الحجاز وأهل العراق وأهل الشام ، وكان يعرف أخلاق من اتصل به من الرجال ، وهذه الأنواع من المعرفة النفسية كانت السرفى نجاح سياسته حتى قال فيه عمرو بن العاص : اتقوا آدم قریش وابن كريمها ، من يضحك في الغضب ، ولا ينام إلا على الرضى ، ويتناول ما فوقه من تحته .

ولقد كان عمرو بن العاص من دهاة العرب ، ولكن دهاؤه دون دهاء معاوية ، فقد نادى على معاوية في وقعة صفين وقال له : يا معاوية إعلام يقتل الناس بيني وبينك ؟ هلم أحاكمك إلى الله ، فأينا قتل صاحبه استقامت له الأمور ، فقال عمرو لمعاوية : قد أنصفك الرجل فقال له معاوية : ما أنصفت ، وإنك لتعلم أنه

لم يبارزه رجل قط إلا قتله أو أسره ، فقال له عمرو : وما يجمل بك إلا مبارزته ، فقال له معاوية : طمعت فيها بعدى !
وحققها عليه .

فهذا عمرو بن العاص على دهائه لم يستطع أن يغش معاوية ، ولو كان معاوية يجهله أو يجهل أمثاله لاستثارته كلمة عمرو ، ولكن معرفته بنفوس الخلق أبقت عليه حياته .

بيعة يزيد

لئن دلَّ الفصل الذي تقدّم على مقدار إحاطة معاوية بالسياسة النفسية ، إن هذا الفصل يوضّح لنا أسلوباً من أساليبه في هذه السياسة ، وقد ظهر هذا الأسلوب في طلبه البيعة ليزيد ، ولم يهتم بشيء في أواخر حياته اهتمامه بهذه البيعة ، لقد كان لابنه يزيد في قلبه منزلة عظيمة ، وقد ذكر بعض المؤرخين أن معاوية إذا أتته الأمور المشككة المعضلة ، بعث إلى يزيد يستعين به على استيضاح شبهاتها ، واستمهال معضلاتها ، فلا عجب إذا جهد في طلب البيعة له ، وقد عانى في هذه السبيل ما عانى ، وخاصة لما قدم المدينة ، على نحو ما تأتي الإشارة إليه ، وفاتح قریشاً وغيرهم برغبته في استخلاف يزيد من بعده على المسلمين ، فقد سمع في هذا المعنى ما يكره ، قال له عبد الله بن عمر : إن هذه الخلافة ليست بهرقلية ولا قيصرية ولا كسروية يتوارثها الأبناء عن الآباء ، وقال له مروان بن الحكم : اهدأ من تأميرك الصبيان !

وإذا أحببنا أن نعرف مبلغ عناية معاوية بطلب البيعة لابنه يزيد فلا بأس بذكر الخبر الآتي :

كتب المغيرة بن شعبه إلى معاوية حين كبر وخاف أن يستبدل به ، أما بعد فقد كبرت سنى ورق عظمى واقترب أجلى وسفهنى سفهاء قریش فرأى أمير المؤمنين فى عمله موفق ، فكتب إليه معاوية : أما ما ذكرت من كبر سنك فأنت أكلت شبابك ، وأما ما ذكرته من اقتراب أجلك فأنى لو أستطيع دفع المنية لدفعتها عن آل أبى سفيان ، وأما ما ذكرته من سفهاء قریش فخلماؤها أحلوك هذا الحل ، وأما ما ذكرت من العمل فضح رويداً يدرك الهيجا حمل ^(١) ، فلما انتهى الكتاب إلى المغيرة كتب إليه يستأذنه فى القدوم عليه فأذن له وخرج جماعة معه ، فلما دخل عليه قال له : يا مغيرة ! كبرت سنك ورق عظمى ولم يبق منك شئ ولا أرانى إلا مستبدلاً بك ، قال المحدث عنه : فانصرف إلينا ونحن نرى الكآبة فى وجهه ، فأخبرنا بما كان من أمره ، قلنا له : فما تريد أن تصنع ؟ قال : ستعلمون ذلك ، فأتى معاوية فقال له : يا أمير المؤمنين ! إن الأنفس

(١) مثل فى النهي عن العجلة .

ليغدى عليها ويراح ، ولست فى زمن أبى بكر وعمر ، فلو نصبت
لنا علماً من بعدك نصير إليه ، فإنى قد كنت دعوت أهل العراق
إلى بيعة يزيد ، فقال : يا أبا محمد ! انصرف إلى عملك وأحكم
هذا الأمر لابن أخيك ، فأقبلنا نركض على النجب ، فالتفت
فقال : والله لقد وضعت رجله فى ركاب طويل ألقى عليه أمة
محمد صلى الله عليه وسلم .

إن خبراً مثل هذا الخبر يدل على أمرين : على شدة رغبة
معاوية فى طلب البيعة ليزيد حتى أوشتك هذه الرغبة أن تكون
موطن ضعف فيه ، وعلى شعور المغيرة بهذا الموطن ، وقدروى
فى كتب التاريخ والأدب على أوجه شتى ، ولكن الجوهر فيه
واحد ، وإنا نعلم مقدار محبة معاوية ليزيد ، وسنرى السعى الذى
سعاه فى أمر البيعة ، والعقبات التى تقهحها ، فقد كانت هذه البيعة
شغله الشاغل ، فاتح الناس بها ثم سكت عنها ، ثم فاتحهم بها ثم
سكت ، حتى أمكنته الفرص فأقدم عليها ولم يحجم ، وما زال بها
حتى تمت على ما أراد ، فمهارة المغيرة بن شعبة ، وهو من دهاة
العرب ، كانت فى الإحساس بهذه الرغبة فى نفس معاوية ، ولم
تكن نفس معاوية رقيقة الحجاب ، فإن الحجب التى تسترها

لكثيفة ، فالخلوص إليها يستلزم كثيراً من الفطنة والدهاء ، ولم يعوز المغيرة شيء من ذلك ، فقد استطاع بكلمة أن يغير رأى معاوية فيه ، وأن يرده إلى حسن الظن به وجميل الاعتقاد فيه ، استطاع بكلمة أن يحمله على إقراره في الكوفة بعد أن كبرت سنه ورق عظمه واقترب أجله وسفهى السفهاء ، وما كانت هذه الكلمة خارجة عن الآفاق النفسية ، على أنه قد يجوز أن معاوية قاتح المغيرة بما قاتحه به في صدر الأمر من باب الاستدراج حتى يعلم ما عنده في يزيد ، وعلى هذا الوجه فإن دهاء في هذا الموقف أعظم من دهاء المغيرة .

ولئن بسطت هذه المقدمة قبل الخوض في الكلام علىبيعة يزيد ، فلم تكن المقدمة عبثاً ، إنها دللتنا من جهة على ناحية نفسية ، دللتنا على خلوص المغيرة إلى أعماق نفس معاوية أو خلوص معاوية إلى أعماق نفس المغيرة ، ودللتنا من جهة ثانية على الاهتمام الذي كان يهتمه معاوية ببيعة يزيد ، فلنشرع الآن في أمر هذه البيعة .

ظهرت عبقرية معاوية في علم النفس في مواضع كثيرة من سياسته ، وقد اخترت في هذا المقام موضعاً واحداً منها ، وهو طلبه

البيعة ليزيد ، لقد تفنن في هذا الطلب كل تفنن ، وسلك إليه كل مسلك ، سلك ما نسميه في هذا العصر « الدعاية » وهو مسلك لا يحتاج إلى توضيح ، فلا يغفل واحد منا عن تأثير « الدعاية » في الأمم ، حتى بلغ من هذا التأثير أن جعلت بعض الدول وزارة خاصة بها ، فإن من أساليب « الدعاية » التكرير ، وهذه طريقة مشهورة ، ولا سيما في التربية والتعليم ، فإن الأساتيد والعلمين يلجؤون إليها ليسهل تقرير ما يريدونه في أذهان الطلاب .

ولم يكتف معاوية بأسلوب « الدعاية » وحدها ، فإنه قصد إلى النفوس فسبر أغوارها ، وخبر بواطنها ، ثم استعان باللين ، ثم عمد إلى الشدة ، حتى استطاع بعد هذا كله أن يتمم البيعة ليزيد ، على الرغم مما قاساه في هذا الباب ، ولم تكن أساليبه فيه إلا نفسية ، لم تشابه كتب التاريخ والأدب في وصف بيعة يزيد ، فبعض هذه الكتب مناقض لبعض في طائفة من تفاصيل هذه البيعة ، ولما كان كتابي ليس من التاريخ في شيء ، وكان همى الوحيد فيه استنباط العناصر النفسية من سياسة بعض عمال المسلمين وأمرائهم وخلفائهم ، أو من بعض أخبار التاريخ ،

عولت على الرجوع إلى كتب مختلفة آخذ من كل واحد منها ما يعينني على توضيح موضوعي الذي أعالجه ، أما الدقة في الأخبار والتفاصيل فإنها تطلب في أمهات كتب التاريخ .

جاء في العقد الفريد أنه لما مات زياد وذلك سنة ثلاث وخسين أظهر معاوية عهداً مفتعلاً ، فقرأه على الناس ، فيه عقد الولاية ليزيد بعده ، وإنما أراد أن يسهل بذلك بيعه يزيد ، فلم يزل يروض الناس لبيعته سبع سنين ، ويشاور ويعطى الأقارب ويداني الأبعاد ، حتى استوثق له من أكثر الناس .

لم يفاجئ معاوية الناس مفاجأة برغبته في عقد البيعة ليزيد ، لأنه يعلم أن كثيراً منهم يخالفونه في رأيه ، فتلطف في هذا الأمر واحتمال له ، وذلك أنه افتعل عهد البيعة ليرى تأثيره في الناس ، ثم مهد السبيل إلى هذه البيعة سبع سنين ، وهي مدة كافية على ما أعتقد ، فإن النفوس التي تسمع في خلال سبع سنين تكرير فضائل يزيد وكفائته يرسخ فيها الإيمان بهذه الفضائل والكفاءة حتى تصبح عقيدة مكينة .

كان معاوية في خلال هذا الترويض لا يغفل عن استشارة الناس في أمر البيعة ، وهو لم يذهب هذا المذهب للاستعانة

بآرائهم، وإنما كان يريد أن يعرف ما تنطوى عليه نفوسهم، حتى يعد لكل أمر عذته، قال لعبد الله بن الزبير: ما ترى فيبيعة يزيد؟ قال: يا أمير المؤمنين، إني أناديك ولا أناجيك، إن أخاك من صدقك، فانظر قبل أن تتقدم، وتفكر قبل أن تقدم، فإن النظر قبل التقدم، والتفكير قبل التقدم، فضحك معاوية وقال: ثعلب رواءع! تعلمت الشجاعة عند الكبر، في دون ما تشجعت به علي ابن أخيك ما يكفيك، ثم التفت إلى الأحنف فقال: ما ترى بيعة يزيد؟ قال: نخافكم إن صدقناكم، ونخاف الله إن كذبنا.

من ضحكة معاوية يتبين لنا أنه لم يسأل ابن الزبير عن رأيه فيبيعة يزيد من باب الاستعانة بهذا الرأي، وإنما سألته حتى يعرف ما تضره نفسه، ولم يتقن ابن الزبير روغان الثعالب، لأنه لو اتقن هذا الروغان لما استعمل مع رجل مثل معاوية هذا الأسلوب من الكلام، كان يجب عليه أن يعرف أن معاوية لم يسأله عن رأيه في يزيد إلا من باب الاستدراج، فما أسرع انكشاف ابن الزبير لمعاوية، وما أسرع خبرة معاوية بروغان ابن الزبير.

لم يكتف معاوية بهذه الاستشارات ، فإنه أراد الإمعان فيها
لعل آراء الناس تغيرت فيقدم على البيعة ، أو لعلها لم تتغير فيتلبث
فلما كانت سنة خمس وخمسين كتب إلى سائر الأمصار أن يقدوا
عليه ، فوفد عليه من كل مصر قوم .

بين هذه الوفود رجال لا يوافقون معاوية على رأيه في العقد
ليزيد ورجال موافقون له على ذلك ، فاذا بدأ باستشارة الأولين
علانية خاف أن تكون مخالفتهم مشبطة لجماعته ، فدعاه أحد وفود
المدينة وهو محمد بن عمرو بن حزم ، فخلا به معاوية وقال له :
ما ترى في بيعة يزيد ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، ما أصبح اليوم
على الأرض أحد هو أحب إلى رشداً من نفسك سوى نفسي ،
وإن يزيد أصبح غنياً في المال ، واسطاً في الحسب ، وإن الله
سائل كل راع عن رعيته ، فاتق الله وانظر من تولى أمر أمة
محمد ، فأخذ معاوية بهر حتى تنفس الصعداء ، وذلك في يوم شات ،
ثم قال : يا محمد ، إنك امرؤ ناصح ، قلت برأيك ، ولم يكن
عليك إلا ذاك ، إنه لم يبق إلا ابني وابناؤهم ، فابني أحب إليَّ
من أبنائهم ، أخرج عني .

من حسن سياسة معاوية كما قلت أنه لم يسأل ابن حزم

علانية ، وإنما سؤاله كان بعد الخلوة ، فكأنه كان عارفاً بأن جوابه لا يرضيه ، يخاف أن يؤثر هذا الجواب في جماعته أثراً قبيحاً ، فيغيروا آراءهم من باب العدوى ، فلم يبق لمعاوية إلا تدبير الأمر ، وهو تهيشة ناس يوافقونه علىبيعة يزيد ، فجلس في أصحابه وأذن للوفود فدخلوا عليه ، وقد تقدم إلى أصحابه أن يقولوا في يزيد ، إنى لا أرى حاجة إلى إعادة أقوالهم ، فإنها مدونة في كتب التاريخ والأدب ، وإنما أكتفى بالتنبيه على أن هذه الأقوال كلها أجمع أصحابها على التغنى بحسن معونة يزيد وقصد سيرته وفضل حلمه وعقله وأمثال هذه الفضائل .

فلما تمتبيعة العراق والشام قوى أمر يزيد ببعض الشيء ، فاستطاع معاوية بعد ذلك أن يفتح أهل الحجاز بها .

كان مروان بن الحكم عامله على المدينة ، فكتب إليه معاوية يذكر الذي قضى الله به على لسانه منبيعة يزيد ، ويأمره بجمع من قبله من قريش وغيرهم من أهل المدينة للمبايعة ليزيد ، فلما قرأ مروان كتاب معاوية أبي البيعة ليزيد وأبنتها قريش ، فكتب لمعاوية : إن قومك قد أبوا إجابتك إلى بيعتك ابنك ، فأرني رأيك ، فلما بلغ معاوية كتاب مروان عرف ذلك من قبله ،

فكتب إليه يأمره أن يعتزل عمله ويخبره أنه قد ولي المدينة
سعيد بن العاص ، وفي تاريخ المسعودي أن معاوية بعد عزله
مروان عن المدينة ولاها الوليد بن عتبة بن أبي سفيان ، وكتب
معاوية إلى سعيد بن العاص وهو على المدينة يأمره أن يدعو أهل
المدينة إلى البيعة ويكتب إليه بمن سارع ممن لم يسارع .

فلما أتى سعيد بن العاص الكتاب دعا الناس إلى البيعة ليزيد
وأظهر العظيمة وأخذهم بالعزم والشدة وسطاً بكل من أبطأ عن
ذلك ، فأبطأ الناس عنها إلا اليسير ، لا سيما بني هاشم ، فلم
يجبه منهم أحد وكان ابن الزبير أشد الناس إنكاراً لذلك وردأله ،
فكتب سعيد بن العاص إلى معاوية بهذه الأمور كلها ، فكتب
معاوية إلى عبد الله بن عباس وإلى عبد الله بن الزبير وإلى
عبد الله بن عمر وإلى الحسين بن علي كتباً ، وأمر سعيد بن العاص
أن يوصلها إليهم ويبعث بجواباتها ، وأوصاه بالرفق وحذره
الخرق وأوصاه بالحسين خيراً ، وقد كانت كتب معاوية تجمع
بين الشدة واللين ، بحسب من كان يكتب إليهم ، وكذلك
الجوابات ، بعضها كان شديداً ، وبعضها كان ليناً .

فلما جاوب القوم معاوية بما جاوبوه به من الخلاف لأمره

والكراهية لببيعة يزيد . كتب مرة ثانية إلى سعيد بن العاص يأمره أن يأخذ أهل المدينة بالبيعة ليزيد أخذاً بغلظة وشدة ، ولا يدع أحداً من المهاجرين والأنصار وأبنائهم حتى يبايعوا ، وأمره أن لا يحرك أولئك النفر الذين كاتبهم وكاتبوه ، ولا يهيجهم فلما قدم عليه كتاب معاوية أخذهم بالبيعة أعنف ما يكون من الأخذ وأغلظه ، فلم يبايعه أحد منهم ، فكتب إلى معاوية إنه لم يبايعني أحد ، وإنما الناس تبع لهؤلاء النفر ، فلو بايعوك بايعك الناس جميعاً ولم يتخلف عنك أحد .

فلم يبق لمعاوية إلا سبيل واحدة ، وهي الركوب إلى المدينة بنفسه ، فلننظر في الأساليب التي تبعها مع الذين أنكروا بيعة يزيد .

قدم معاوية المدينة حاجباً ومعه خلق كثير من أهل الشام ، فلما دنا من المدينة خرج إليه الناس يتلقونه ما بين راكب وماش ، وخرج النساء والصبيان ، فلقى الناس على حال طاقتهم وما تسارعوا به في القوت والقرب ، فلان لمن كلفه وفاوض العامة بمحادثته وتألفهم جهده ومقاربة ومصانعة ، يستميلهم إلى ما دخل فيه الناس ، حتى قال في بعض ما يحتلبهم به : أهل المدينة !

ما زلت أطوى الحزن من وعشاء السفر بالحب لمطالعتكم حتى
انطوى البعيد ، ولان الخشن ، وحق لجار رسول الله أن
يتاق إليه .

حتى إذا كان بالجرف لقيه الحسين بن علي وعبد الله بن عباس
فقال معاوية : مرحباً بابن بنت رسول الله وابن صنو أبيه ،
ثم انحرف إلى الناس فقال : هذان شيخا بني عبد مناف ! وأقبل
عليهما بوجهه وحديثه ، فرحب وقرب ، وجعل يواجه هذا مرة
ويضاحك هذا أخرى ، حتى ورد المدينة ، فلما خالطها لقيته المشاة
والنساء والصبيان ، يسلمون عليه ويسأرونه إلى أن نزل
فانصرفا عنه .

مال الحسين إلى منزله ومضى عبد الله بن عباس إلى المسجد
فدخله ، وأقبل معاوية حتى أتى عائشة أم المؤمنين ، فاستأذن
عليها ، فأذنت له وحده ، لم يدخل عليها معه أحد ، وكل هم معاوية
في حديثه معها إقناعها بأن الناس بايعوا يزيد فلا يجوز نقض
عهودهم ومواثيقهم .

ثم خرج من عند عائشة حتى أتى منزله ، فأرسل إلى الحسين
بن علي نخلا به ، ثم أرسل بعده إلى ابن الزبير نخلا به ، ثم أرسل

بعده إلى ابن عمر نخلا به ، ثم أرسل إلى عبد الرحمن بن أبي بكر نخلا به ، ومن أراد أن يعرف تفاصيل ما دار بينهم من الأحاديث فليرجع إليها في كتاب الإمامة والسياسة ، فكلها ترمى إلى حملهم على بيعة يزيد ، ولم ينجح مسعاه في هذا الباب

فلما كان اليوم الثاني أمر بفراش فوضع له وسويت مقاعد الخاصة حوله وتلقاه من أهله ، ثم خرج وعليه حلة يمانية وعمامة دكناء ، وقد أسبل طرفها بين كتفيه ، وقد تغلف وتعطر ، فقعده على سريره وأجلس كتابه منه بحيث يسمعون ما يأمر به ، وأمر حاجبيه أن لا يأذنا لأحد من الناس وإن قرب ، ثم أرسل إلى الحسين بن علي وعبد الله بن عباس ، وقد ذكر ابن قتيبة تفاصيل إكرامهما ، وكل غاية معاوية من حديثهما حملهما على بيعة يزيد ، فلم يدرك ما يريد منهما ، فصرفهما ، وأرسل إلى عبد الرحمن بن أبي بكر وإلى عبد الله بن عمر وإلى عبد الله بن الزبير ، وقد طال الكلام بينه وبينهم ، فلم يظفر بما يرجوه منهم .

ثم أمرهم بالانصراف ، واحتجب عن الناس ثلاثة أيام لا يخرج ثم خرج فأمر المنادي أن ينادى في الناس أن يجتمعوا لأمر جامع ،

فاجتمع الناس في المسجد ، وقعد هؤلاء النفر حول المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم ذكر يزيد وفضله وقراءته القرآن ، ثم خطب خطبة قصده منها أنه بايع يزيد لما وقع الناس فيه من الاختلاف ، وقد جرى بينه وبين الحسين كلام شديد ، ثم قام عبد الله بن الزبير إلى معاوية فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض فترك الناس إلى كتاب الله ، فرأى المسلمون أن يستخلفوا أبا بكر ، ثم رأى أبو بكر أن يستخلف عمر ، وهو أقصى قریش منه نسباً ، ورأى عمر أن يجعلها شورى بين ستة نفر اختارهم من المسلمين ، وفي المسلمين ابنه عبد الله وهو خير من ابنك ، فإن شئت أن تدع الناس على ما تركهم رسول الله فيختارون لأنفسهم ، وإن شئت أن تستخلف من قریش كما استخلف أبو بكر خير من يعلم ، وإن شئت أن تصنع مثل ما صنع عمر ، تختار رهطاً من المسلمين وتزويها عن ابنك فافعل .

لقد أصر القوم على إنكارهم البيعة ليزيد ، ولم يبق لمعاوية متسع من الوقت يلاطف فيه من يلاطف ، ويحامل فيه من يحامل ، أو يتهدد فيه من يتهدد ، فقد ذهب في اللين كل مذهب ،

فما نفعه لينه ولا نفعته ملاطفته ، فما هو الأمر الذي هياه بعد هذا
النوع من السياسة ؟

نزل معاوية عن المنبر وانصرف ذاهباً إلى منزله وأمر من
حرسه وشرطته قوماً أن يحضروا هؤلاء النفر الذين أبوا البيعة وهم :
الحسين بن علي وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الله
بن عباس وعبد الرحمن بن أبي بكر ، وأوصاهم معاوية فقال : إني
خارج العشية إلى أهل الشام فأخبرهم أن هؤلاء النفر قد بايعوا
وسلموا ، فإن تكلم أحد منهم بكلام يصدقني أو يكذبني فيه فلا
ينقضى كلامه حتى يطير رأسه ، فحذر القوم ذلك ، فلما كان
العشي خرج معاوية وخرج معه هؤلاء النفر وهو يضاحكهم
ويحدثهم وقد ألبسهم الحلل ، فألبس ابن عمر حلة حمراء وألبس
الحسين حلة صفراء وألبس عبد الله بن عباس حلة خضراء ، وألبس
ابن الزبير حلة يمانية ، ثم خرج بينهم وأظهر لأهل الشام الرضى
عنهم ، وأنهم بايعوا ، فقال : يا أهل الشام ! إن هؤلاء النفر دعاهم
أمير المؤمنين فوجدتهم واصلين ، مطيعين ، وقد بايعوا وسلموا ، قال
ذلك والقوم سكوت لم يتكلموا شيئاً حذر القتل ، فوثب أناس
من أهل الشام فقالوا : يا أمير المؤمنين ، إن كان رابك منهم

ريب نخل بيننا وبينهم حتى نضرب أعناقهم ، فقال معاوية :
 سبحان الله ! ما أحل دماء قریش عندكم يا أهل الشام ، لا أسمع
 لهم ذاكراً بسوء ، فإنهم قد بايعوا وساموا وارتضوني فرضيت عنهم ،
 رضى الله عنهم ، ثم ارتحل معاوية راجعاً إلى مكة ، وقد أعطى
 الناس اعطياتهم وأجزل العطاء وأخرج إلى كل قبيلة جوائزها
 واعطياتها ، ومضى راجعاً إلى الشام .

على هذا الوجه انتهت روايةبيعة يزيد ، قد يجد رجال التاريخ
 فيها ما يجدون ، إني لا أنظر إليها من حيث وجه الصواب والشرع
 فيها ، فهذا أمر أتعده في هذا المقام محتفظاً برأى فيه ، وإما
 أنظر إليها من حيث إنها تلخص لنا سياسة معاوية النفسية
 وأساليبه فيها المبنية على علم النفس ، لقد أفرط في ملاينة سادة
 المسلمين الذين أنكروابيعة يزيد في المدينة ، وبالغ في ملاقتهم
 أملاً منه أن يبايعوا يزيد ، وهذه الملاينة وهذه الملاطفة أنواع
 من السياسة النفسية ، إلا أن اللين لم يؤد إلى النتيجة التي يريد ،
 فاحترف حينئذ إلى الشدة ، ولكنه احتمال في هذه الشدة حيلة
 حقن بها دماء المسلمين ، فجعل سادة المسلمين في حال من الدهشة
 وإذا كان اللين في بعض الأحيان ضرباً من السياسة النفسية فإن

الشدة في بعض الأحيان ضرب من هذه السياسة ، فقد ينجح النوع الأول مرة ، وينجح النوع الثاني مرة ، والعاقل من رجال السياسة من يعرف متى يكون هذا النجاح .

لا يهمنا من هذا الفصل كله وإعادة أخبار روتها كتب التاريخ والأدب إلا الوصول إلى هذه النتيجة ، وهي أن معاوية بنى سياسته على أصول نفسية ، وقد نستطيع أن نذكر من هذه السياسة أشياء كثيرة ، ولكننا لا نزرع إلى الإستهقضاء فيها ، وإنما الغاية التي نتوخاها هي التنبيه عليها لا غير ، وأظن أن زياداً بنى سياسته على هذه الأصول نفسها ، اقتداءً بمعاوية ، وسننظر في ذلك في الفصل الآتي .

ما أطف خاتمه هذه الرواية ، قال الناس للحسين وأصحابه : قلم لا نباع ، فلما دعيت وأرضيتم بايعتم ، قالوا : لم نفعل ، قالوا : بلى قد فعلتم وبايعتم ، أفلا أنكرتم ! قالوا : خفنا القتل ، وكادكم بنا وكادنا بكم ! .

مهاة معاوية في هذا كله أنه كشف عن قلوب سادة قرش في بيعة يزيد ، فعرّف أنهم يخافون القتل ، ففضى في سياسة التخويف ،

ولولم يصدق ظنه فيهم ولم يخافوا القتل الذي أشاروا إليه لأفسدوا
على معاويةبيعة يزيد في الحجاز ، ولكن معاوية كان يعرف
ما يصنع ، كاد شيوخ قریش بالمسلمين وكاد المسلمون بهم ، وهذه
أساليب السياسة !

خطبة زياد في البصرة

إن الكلام على معاوية من ناحية سياسته النفسية يحجر إلى الكلام على زياد من الناحية ذاتها ، لما نجد من المشابهة بين السياستين ، ولا نحتاج في توضيح سياسة زياد إلا إلى الوقوف على خطبته في البصرة ، فإنها عنوان هذه السياسة . والغريب إن رجال الأدب لما تصدوا للكلام على خطب العرب أشاروا إلى ناحية الفن في هذه الخطب ، وأغفلوا الإشارة إلى الناحية النفسية فيها ، فقد اشتملت طائفة من خطب العرب على براهين قاطعة تثبت لنا علم أصحابها بأسرار النفوس ووقوفهم على حقائق الطبائع وإطلاعهم على ما يستثير الجماهير ويسكنهم ، لقد كان كثير من خطباء العرب ، عمالهم وأمرائهم وخلفائهم علماء النفس قبل أن يكونوا أمراء البيان ، راضوا النفوس قبل أن يروضوا الكلام ، وملكوا أزمة الناس قبل أن يملكوا أزمة البلاغة ، ويكاد يكون لسعة علمهم ببواطن النفوس الأثر الأبلغ في نجاح سياستهم في قديم الدهر .

من هذه الطبقة زياد ، قدم البصرة والياً لمعاوية بن أبي سفيان والفسق فيها فاش ظاهر ، فخطب خطبته البتراء المشهورة ، فهل نستطيع وقد تباعدت الأحقاب بيننا وبينه أن نرجع إلى خطبته ، فنستخرج منها الأصول التي بنى عليها سياسته ، هل نستطيع أن نعرف زياداً في خطبته البتراء ، فلنقرأ هذه الخطبة مرة ثانية .

لا شك في أن الذين سمعوا خطبة زياد كانوا من طبقات شتى ، فمنهم أهل البيوتات والأنساب والآداب ، ومنهم العامة ، فبأى طراز من الكلام لقي زياد هذه الجماهير المختلفة ، فلنسمع فاتحة خطبته :

« أما بعد فإن الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء والغنى الموفى بأهله على النار ، ما فيه سفهاؤكم ، ويشتمل عليه حماؤكم من الأمور العظام ينبت فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ! »
جهالة جهلاء وضلالة عمياء . وغنى موف بأهله على النار ، هذه مقدمة الكلام الذي لقي به زياد أهل البصرة ، سفهاؤها وحماؤها صغارها وكبارها ، ولا ريب في أن مثل هذا الكلام ليس من شأنه أن يكون له وقع حسن في نفوس الذين سمعوه ، فليس من

الذين أن ينسب الوالي أهل البصرة إلى الجهالة والضلالة والغنى وأن يرضوا عنه ، فكيف حاول زياد أن يصدر عن هذا المورد العكر الذي ورده ، لقد قذف بما قذف به في مقدمة الخطبة ، ولم يندفع في هذا النمط من القول ، فبعد أن عاب أهل البصرة بما عابهم به ، بعد أن ظهرت الشدة على كلامه ، أحب أن يظهر اللين عليه ، فقال :

« كأنكم لم تقرأوا كتاب الله ، ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته والعذاب الأليم لأهل معصيته في الزمن السرمدي الذي لا يزول » .

فلم يجد زياد أبغ من كتاب الله للاستعانة به على سفهاء البصرة وحماشها ، فبعد أن آلمهم بما آلمهم به تحصن بكتاب الله ، وهو الحصن الحصين في مثل هذه الحال ، فذكر أهل الجهالة والضلالة والغنى بكريم ثواب الله وبأليم عذابه ، وكأن زياداً قد علم بأن الاستعانة بكتاب الله تمهد له السبيل إلى النفوس ، فتبسط في هذا الضرب من الوعظ فقال :

« أنكونون كمن طرفت عينيه الدنيا ، وسدت مسامعه الشهوات ، واختار الغانية على الباقية ، ولا تذكرون أنكم أحدثتم

في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا إليه من ترككم الضعيف يقهر ويؤخذ ماله .

فاستعمل زياد طفيفاً من الحكمة في تنبيه أهل البصرة على أفعالهم ، مثل إيثارهم الدنيا وسد الشهوات لمسامعهم ، فكان كلامه عاماً ليس فيه شيء من التخصيص ، فلم يفاجئ الناس مفاجأة بذكر الأمور التي خالفوا فيها كتاب الله ، ولكنه لم يرد أن يختم عبارته دون ذكر واحد من هذه الأمور ، وهو ترك الضعيف يقهر ويؤخذ ماله ، وفي هذا الكلام شيء من إلقاء العداوة بين الضعفاء والأقوياء ، ولا شك في أن في جملة من سمع خطبته كثيراً من هؤلاء الضعفاء .

فلما تمكن بعض التمسك من قلوب الناس ، سواء أكان هذا التمسك بالتذكير بكتاب الله ، أم باللجوء إلى يسير من الوعظ ، أم بالاغراء بين الضعفاء والأقوياء ، خلا له الجو فاستطاع أن يكشف أهل البصرة ، سفهاءها وحلماءها بأنواع جهالاتهم وضلالاتهم وغيرهم فقال :

« ما هذه المواخير المنصوبة ، والضعيفة المسلوقة في النهار المبصر ، والعدد غير قليل ؟ ! ألم تكن منكم نهاية تمنع الغواة عن

دج الليل وغارة النهار؟ قربتم القرابة، وباعدتم الدين، تعتذرون
 بغير العذر، وتغضون على المختلس، كل امرئ منكم يذب عن
 سفيهه، صنيع من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معاداً، ما أنتم بالعلماء،
 ولقد اتبعتم السفهاء، فلم يزل بكم ماترون من قيامكم دونهم حتى
 انتهكوا حرم الإسلام، ثم أظرقوا وراءكم كنوساً في مكانس
 الريب.»

هذه حالة البصرة لما قدمها زياد عاملاً لمعاوية: مواخير
 منصوبة، ضعيفة مسلووبة، غواة في الليل والنهار، إغضاء
 على المختلس، ذب عن السفيه، ولعمري إنها لأمر مخالفة
 لكتاب الله، مخالفة لقانون الاجتماع، أمور لا يصح لعامل مثل
 زياد أن يسكت عنها، لأن في السكوت عنها ضياعاً للمسلمين،
 وضياعاً لزياد نفسه، وضياعاً لسياسة معاوية أمير المؤمنين،
 فإذا أعد زياد لأهل البصرة، وحالمهم على ما علمنا؟ هذه خطته:
 «حرام على الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدماً
 وإحراقاً، إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما يصلح به
 أوله: لين في غير ضعف، وشدة في غير عنف، وإني أقسم بالله

لأخذنَّ الوليَّ بالموليِّ والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدير ، والمطيع بالعاصي ، والصحيح منكم في نفسه بالسقيم ، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول : انج سعد ، فقد هلك سعيد ، أو تستقيم قناتكم ! »
الآن تكشف زياد لأهل البصرة ، فظهرت سياسته في حقيقة صورتها : لين في غير ضعف وشدة في غير عنف ، ولكن الشدة كانت أغلب على كلامه من اللين ، ولئن لم تظهر هذه الشدة في عزمه على هدم مكانس الريب وإحراقها إنها قد ظهرت في أخذه الوليَّ بالموليِّ ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدير ، والمطيع بالعاصي ، والصحيح بالسقيم ، ولولا هذه الشدة ما استقامت قناة أهل البصرة ، ولولا هذا العنف ما استطاع زياد أن يضبط من أهل البصرة ما ضبط ، وأحوال الاجتماع فيها على ما علمنا .
ولكن زياداً خاف أن لا يصدقَه الناس في الذي عزم عليه ، فقد خاف أن يرموه بالكذب في يمينه ، فاضطر إلى تأييد هذه اليمين بقوله : « إن كذبة المنبر بقاء مشهورة ، فإذا تعلقتُم عليَّ بكذبة فقد حلت لكم معصيتي ، فإذا سمعتموها مني فاغتمزوها فيَّ ، واعلموا أن عندي أمثالها » .

أما وقد اطمان زياد إلى أن كلامه قد وقع في آذان الناس

وقلوبهم ، ولم يخف بعد هذه الطمانينة شيئاً من تكذيب الناس إياه فليبادر إلى إيضاح سياسته في إصلاح حال البصرة ، وليتوسع في تبين العقوبات التي أعدها في مثل هذا الإصلاح .

« من نُقِبَ منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب منه ، وإياي ودلج الليل ، فإنني لا أُؤتي بمدلج إلا سفكت دمه ، وقد أجلتكم في ذلك بمقدار ما يأتي الخبر الكوفة ويرجع إليكم ، وإياي ودعوى الجاهلية ، فإنني لا أجِدُ أحداً دعاها إلا قطعت لسانه ، وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن ، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة ، من غرق قوماً غرقناه ، ومن أحرق قوماً أحرقناه ، ومن نقب بيتاً نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفناه حياً فيه ، فكفوا عن أيديكم وألسنتكم أ كفف عنكم يدي ولساني ، ولا تظهر من أحد منكم ريبة بخلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه . »

يتبين لنا أن العقوبات التي وضحها زياد في هذا الكلام أخف من العقوبات التي ذكرها من قبل ، فالفرق ظاهر بين أخذ الولي بالمولي مثلاً وبين تغريق من يغرق قوماً فقد نزل زياد عن شدته بعض الشيء فآمن الناس على أموالهم وأرواحهم وأحدث لكل ذنب عقوبة ، فقد كانت البصرة حين مقدم

زياد في حالة لا يصلح معها اجتماع ولا ينمو فيها مال ولا يكثر عمران، وأى بلد أسوأ حالا من البلد الذى يفشوفيه التفريق والإحراق والنقب والنبش وأشباه هذا كله ؟ ! فبعد أن أدخل زياد على أهل البصرة الطمانينة إلى أموالهم وأرواحهم ، وبعد أن خوَّف سفهاءها بهذه العقوبات التى أحدثها ، لجأ إلى اللين فى كلامه حتى يستميل القلوب إليه فقال : « وقد كانت بينى وبين أقوام إحن ، فجعلت ذلك دبر أذنّى وتحت قدمى ، فمن كان منكم محسناً فليزدد إحسانا ، ومن كان منكم مسيئاً فلينزع عن إساءته ، إني لو علمت أن أحداً قد قتله السل من بغضى لم أكشف له قناعاً ولم أهتك له سترأ حتى يمدى صفحته لى ، فإذا فعل ذلك لم أناظره ، فاستأنفوا أموركم ، وأعينوا على أنفسكم ، فربّ مبتئس بقدمنا سيئس ، ومسرور بقدمنا سيئئس » .

إننا نجد زياداً فى هذا الكلام طوى أحقادهم وظهر فى أخلاق الوالى المنصف ، فلا يحاسب الناس على بواطنهم ، فقد أخذ يتشبه فى هذه السياسة بسيدنا عمر بن الخطاب ، وعلم بأن مثل هذه السياسة تزيد فى تمثيل الناس إليه ، بعد الشدة التى ظهرت آثارها على كلامه ، فتبسط فى هذا المذهب فقال :

« أيها الناس ! إنا أصبحنا لكم ساسة ، وعنكم ذادة ، نسوسكم
 بسلطان الله الذي أعطانا ، ونذود عنكم بفيء الله الذي خولنا ، فلنا
 عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل فيما علينا ،
 فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناسحتكم لنا ، واعلموا أني مهما قصرت
 عنه فلن أقصر عن ثلاث : لست محتجبا عن طالب حاجة منكم ،
 ولو أتاني طارقاً ليل ، ولا حابساً عطاء ولا رزقاً عن إبانة ، ولا
 مجرأ لكم بعثاً ، فادعوا الله بالصالح لأئمتكم ، فإنهم ساستكم
 المؤدبون لكم ، وكهفكم الذي إليه تأوون ، ومتى يصلحوا تصلحوا
 ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك غيظكم ويطول له حزنكم ،
 ولا تدركوا له حاجتكم ، مع أنه لو استجيب لكم فيه لكان شراً
 لكم ، أسأل الله أن يعين كلا على كل ، وإذا رأيتموني أنفذ فيكم
 الأمر فأنفذوه على إذلاله . »

هذا كلام أشبه شيء بكلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ،
 فقد انسحب زياد على أذيال عمر في هذه السياسة ، فجعل بين
 الراعي والرعية هذه الصلة المتينة ، صلة المناصحة ، فإذا فقدت المناصحة
 بين الحكومة وبين الأمة تمكن من الأمة كره الحكومة ، وتمكنت
 من الحكومة النقرة على الأمة ، ومتى اشتدت الكراهية من ناحية

الشعب والنقمة من ناحية الحكومة ضاعت الحكومة والشعب في وقت واحد . وهذا ما فطن له زياد في أواخر خطبته فأحب أن يصور الولاية للأمة في صورة الكهف الذي ترجع إليه في شدائدنا ، فإذا صلح الوالى صلحت الأمة وإذا فسد فسدت ، وهذا هو المثل الأعلى في الحكم .

إلا أن زياداً خاف أن يكون اللين آخر ما يعلق بأذهان أهل البصرة من خطبته ، وخاف أن ينسوا الشدة التي غلبت على بعض كلامه ، والعقوبات التي أحدثها لذنوبهم ، والخلاصة خاف أن ينسوا زياداً فهذر هذا الهدير فقال :

« وايم الله ! إن لى فيكم لصرعى كثيرة ، فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعى ! »

وهكذا فقد بدأ خطبته بالشدة وختمها بالشدة ، أما اللين فكان يتخلل كلامه .



أما وقد فرغنا من قراءة خطبة زيادة في البصرة ، فهل استطعنا أن نعرف سياسته النفسية من خطبته ، أظن أنا لاحتاجة بنا بعد أن دققنا في كلامه هذا التدقيق إلى السؤال عن عناصر

هذه السياسة ، فقد كان تصرفه في خطبته عنوان تصرفه في سياسته النفسية ، ولئن كان مكتوباً في مجلسه : الشدة في غير عنف واللين في غير ضعف فتكون هذه الحكمة أبرز شيء في سياسة زيادة ، فإن لجوءه في كلامه إلى الرفق مرة وإلى الغلظة مرة ، ثم تقلبه بين الوعد والوعيد ، دليل على حذقه أساليب السياسة النفسية وعلى مهارته في مداخلها ومخارجها ووقوفه على طبائع الناس ، ولولا هذه البراعة في السياسة وعلم النفس ما كتب له هذا النصيب من التوفيق ، فلنرجع الآن إلى خطبة زياد في البصرة ، ولنملاً خواطرننا منها ، فلعل فهمنا لأسرارها النفسية ولحاسنها يكون أتم وأكمل ، وإذا قرأنا خطب رجالات العرب في القديم على هذا الوجه فإني أعتقد أننا نختصر المسافة بين أفهامنا وبين إدراك عبقرتهم !

عبد الملك بن مروان

من أية ناحية فهم عبد الملك بن مروان روح الجماهير فبنى سياسته عليها ، قد يجوز أنه أدرك هذه الروح من مواضع كثيرة ، ولكنني أقتصر في هذا الفصل على قليل منها ، ولا عبرة بكثرة الأخبار التي تدل على تمكن عبد الملك من المعرفة النفسية في السياسة ، وحسبي في هذا المقام خبران ، فأنا لا أستقصى في هذا الكتاب في أخبار التاريخ . كان عبد الملك بن مروان من رجال السياسة المشهورين في بني أمية ، فهو يستلزم إفاضة في الكلام عليه ، وتوسعاً في وصفه ، على نحو ما جرى في الكلام على معاوية ، ولكن خبرين قد يدلان على علو منزلته في السياسة النفسية .

قرأت في فصل من فصول كتاب فرنسي «معجزات الفكر» العبارة الآتية : الرجل الذي يستطيع أن يبتسم والأمور من حوله سيئة أفضل من الرجل الذي يضعف في الشدائد ، الرجل الذي

يبتسم والزمن متألب عليه يدل على أنه من معدن رفيع ، فلا
يقدر على مثل ذلك أى رجل كان .

وأظن أن عبد الملك بن مروان هو الرجل الذى يتسم بهذه
الصفات ، سار فى جيوش أهل الشام ، فنزل بطنان ينتظر ما
يكون من ابن زياد ، وقد كان ابن زياد يقود عساكر الشام
من قبل عبد الملك لمحاربة العراق ، فأتى عبد الملك خبر مقتله
ومقتل من كان معه وهزيمة الجيش بالليل ، ثم جاءه خبر دخول
بابل بن قيس فلسطين من قبل ابن الزبير ، ومسير مصعب بن
الزبير من المدينة إلى فلسطين ، ثم جاءه مسير ملك الروم لاوى
بن فلقط ونزوله المصيصة يريد الشام ، ثم جاءه خبر دمشق وأن
عبيدها وأوباشها ودُعَّارها قد خرجوا على أهلها ونزلوا الجبل ،
ثم أتاه أن من فى السجن بدمشق فتحوا السجن وخرجوا منه
مكابرة وأن خيل الأعراب أغارت على حمص وبلبلعك والبقاع ،
وغير ذلك مما نعى إليه من المفظعات فى تلك الليلة ، فلم ير عبد
الملك فى ليلة قبلها أشد ضحكا ولا أحسن وجهاً ولا أبسط لساناً
ولا أثبت جفناً منه تلك الليلة ، تجلداً وسياسة للملوك ، فترك
إظهار الفشل وبعث بأموال وهدايا إلى ملك الروم فشغله وهادنه ،

وسار إلى فلسطين وبها بابل بن قيس على جيش ابن الزبير ،
فالتقوا بأجنادين ، فقتل بابل بن قيس وعامة أصحابه وانهزم
الباقون ونمى خبر مقتله وهزيمة الجيش إلى مصعب بن الزبير وهو
في الطريق فولى راحباً إلى المدينة ورجع عبد الملك إلى
دمشق فنهزها .

هذه شدائد حسب الواحدة منها أن تضعع عبد الملك وهو
يمهد سلطانه ويحارب أعداءه ، ولكن الرجال لا تظهر قوة
أعصابهم إلا في الشدائد ، فقد كان الملك يعرف حق المعرفة أنه
إذا تضعع لأمر من الأمور التي أصابته في تلك الليلة ذهب
سلطانه ، وهذه المعرفة مقتبسة عن خبرته لطباع الناس الذين إذا
استضعفوا رجالاً صاحب ملك انفضوا من حوله وكانوا حرباً عليه
عرف كيف يستقبل الشدائد ، عرف كيف يبتسم والأحوال من
حوله سيئة وكيف ينطلق وجهه والزمن متألب عليه ، لأنه من
معدن غير معدن الناس ، إنه جبار لا يبالي ما يصنع ، على نحو
ما قال المنصور فيه ، فلولا علم عبد الملك بأخلاق البشر وروح
الجماهير وقرنه سياسته بهذا العلم لذهب ملكه من تلك الليلة .

ولا بأس بأن أضيف إلى هذا الخبر خبراً آخر ما دمت أنكم

على الشدائد التي لقيها عبد الملك في ليلة من لياليه ، ولئن خرج من المأزق الذي سبق وصفه بمعرفته النفسية من حيث التجلد للشدائد لقد خرج من المأزق الآتي بالمعرفة النفسية من حيث تأثير المال في الجماهير .

يتعلق هذا الخبر بقتل عبد الملك بن مروان لعمر بن سعيد الأشدق ، وقد رويت أخبار هذا القتل على أوجه شتى ، من جملة الذين رووها ابن قتيبة في الإمامة والسياسة وابن عبدبريه في العقد الفريد .

إننا نعلم أن عبد الله بن الزبير دعا الناس إلى بيعته بعد موت يزيد بن معاوية ، وقد اتتهبيعة أكثر الآفاق حتى قتله الحجاج على أيام عبد الملك ، ولكنه قبل أن يقتل أجمع رؤساء أهل العراق وأشرفهم على خلعه لأنهم يئسوا مما عنده ولم يرجوا رفده ، فقد كان بخيلاً ، وبخله أبعد عن الملك ، فكتبوا إلى عبد الملك بن مروان أن سر إلينا ، فلما أراد عبد الملك أن يسير إليهم وخرج من دمشق استخلف عليها عبد الله بن يزيد ، فلما شارف الفرات انحزل عمرو بن سعيد الأشدق من عسكره وصار إلى دمشق ، فبايعه عبد الله بن يزيد وأغلق أبواب دمشق ، فانكفأ عليه عبد

الملك راجعاً إليه ، فحاصر أهل دمشق أشهراً حتى صالح عمرو بن سعيد على أنه الخليفة بعده ، ففتح دمشق ، ولما اصطالح عبد الملك وعمر بن سعيد الأشدق على هذا الأمر أرسل عبد الملك إلى عمرو بن سعيد نصف النهار أن اتنى أبا أمية حتى أدبر معك أموراً ، فخرج ليأتيه ، فقالت له امرأته : لا تذهب إليه فإنني أتخوف عليك وإني لأجد ريح دم مسفوك ، فما زالت به حتى ضربها بقائم سيفه فشجها ، فتركته فأخرج معه أربعة آلاف رجل من أهل دولته مسلحين فأخذوا بخضراء دمشق وفيها عبد الملك فقالوا لعمرو إذا دخلت على عبد الملك ، أبا أمية ، ورابك منه شيء ، فأسمعنا صوتك ، فقال لهم : إن خفي صوتي ولم تسمعوه فالزوال بيني وبينكم ميعاد ، إن زالت الشمس ولم أخرج إليكم فاعلموا أنني مقتول أو مغلوب ، فضعوا أسيافكم ورماحكم حيث شئتم ولا تعمدوا سيفاً حتى تأخذوا بثأري من عدوي ، فدخل وجعلوا يصيحون أيا أبا أمية ، أسمعنا صوتك ، وكان معه غلام أسحم شجاع ، فقال له : اذهب إلى الناس فقل لهم : ليس عليه بأس ، ليسمع عبد الملك أن وراءه جماعة ، ففطن عبد الملك إلى ذلك وقال له : أتمكروا أبا أمية عند الموت ، خذوه ، فأخذوه ، فأمر

عبد الملك أخاه عبد العزيز بن مروان بقتله، فلم يقتله عبد العزيز لأنه
تمسك منه بالرحم، فأمر عبد الملك رجلا عنده فضرب عنقه ثم أدرجه
في بساط ثم أدخله تحت السرير، فدخل عليه قبيصة بن ذؤيب
الخرامى وكان أحد الفقهاء، وكان رضيع عبد الملك بن مروان وصاحب
خاتمه ومشورته، فقال له عبد الملك: كيف رأيتك في عمرو بن
سعيد؟ فأبصر قبيصة رجل عمرو تحت السرير فقال: اضرب
عنقه يا أمير المؤمنين، فقال له عبد الملك: جزاك الله خيراً، فما
علمتك إلا ناصحاً أميناً، موافقاً، ثم قال له: ما ترى في هؤلاء
الذين أحدقوا بنا وأحاطوا بقصرنا؟ قال قبيصة: اطرح رأسه
إليهم يا أمير المؤمنين ثم اطرح عليهم الدنانير والدرهم يتشاغلون
بها، فأمر عبد الملك برأس عمرو أن تطرح إليهم من أعلى القصر،
فطرح إليهم وطرحت الدنانير ونثرت الدرهم ثم هتف بهم
الهاثف ينادى: إن أمير المؤمنين قد قتل صاحبكم بما كان من
القضاء السابق والأمر النافذ، ولكم على أمير المؤمنين عهد الله
وميثاقه أن يحمل راجلكم ويكسو عاريكم ويغنى فقيركم ويبلغكم
إلى أكمل ما يكون من العطاء والرزق، ويبلغكم إلى المائتين في
الديوان، فاقبلوا أمره، واسكنوا إلى عهده، يسلم لكم دينكم،

فصاحوا : نعم ! نعم ! سمعاً وطاعة لأمر المؤمنين !



قد يكون في هذا القتل شيء من الغدر على نحو ما يراه بعض المؤرخين ، إلا أني لا أنظر إلى الرواية من الناحية الخلقية ، وإنما أنظر إليها من الناحية السياسية النفسية ، وإني لأرجو المذرة من توسعي في أخبارها ، فما إلى شيء من التأريخ قصدت ، ولكن هذا الخبر ليس بيسير ، إنه ينطوي على ناحية نفسية دقيقة ، وليس المهم أن يقتل عبد الملك رجلاً مثل عمرو بن سعيد الأشدق ، فإن تأريخ العرب لا يخلو من أمثال هذا القتل ، إنما المهم أن يستطيع رجل مثل قبيصة بن ذؤيب الخزاعي أن يقلب جماعة عمرو من حال إلى حال في دقائق ، لا ريب في أن عمرو بن سعيد لما ذهب إلى عبد الملك انتخب أشد جماعته إخلاصاً له وتعلقاً به حتى يحموه أو يأخذوا بثأره إذا نزل به أمر ، وقد كانوا من أبطال أهل الشام الذين لا يقدر على مثلهم ، وكان عمرو نفسه محبباً في أهل الشام ، ولا يهمننا أن نعرف أكان من الحكمة أن يذهب إلى عبد الملك أم كان من الحكمة أن لا يذهب إليه عملاً بمشورة امرأته ، وإنما الذي يهمننا أن نعرفه أن عمرو بن

سعيد الأشدق غاب عنه أمر واحد ، فقد غابت عنه أخلاق جماعته فلم يهتمد إلى حقائقها ، وأدرك حقائق هذه الأخلاق رجل بعيد عن عشرتهم ومخالطتهم وهو ابن ذؤيب الخزاعي ، أدرك هذا الفقيه أخلاق أهل البيئة التي كان يعيش فيها ، ولقد انتفع بهذه المعرفة النفسية في أشد الحاجة إليها ، فلو تأخر عن استعمالها بضع دقائق لما علم إلا الله مصير عبد الملك بن مروان وأهل قصره ، فليس بقليل أن يحيط بهذا القصر أربعة آلاف رجل مسلمين ، من أبطال أهل الشام ، وليس ببعيد أنه لو التحمت الحرب بينهم وبين عبد الملك وجماعة القصر لقتل عبد الملك وأحرق القصر ، ولكن ابن ذؤيب الخزاعي عرف كيف ينبغي عبد الملك من هذا القتل ، فهو بطل هذه السياسة في مقتل عمرو بن سعيد الأشدق .

ولقد اتقن عبد الملك بن مروان هذه السياسة النفسية فاستعان بها على أمور شديدة جرت في أيامه ، فإنه لما سار بأهل الشام ومعه الحجاج إلى العراق ليدعو الناس إلى طاعته ويخلص العراق من خلافة عبد الله بن الزبير وولاية أخيه مصعب ، خرج مصعب بن الزبير بأهل البصرة والكوفة ، فالتقيا بين الشام

والعراق ، وكان عبد الملك ومصعب قبل ذلك متصافيين ،
صديقين متحابين ، لا يعلم بين اثنين من الناس ما الناس ما
بينهما من الإرخاء والصدقة ، فاجتمع عن الملك بمصعب
وخلابه وحاول أن يفصله عن أخيه عبد الله وبذل له الأمان
وقال له : إنه يعزّ على أن أن تقتل ، فاقبل أمانى ولك حكمك
في المال والولاية فأبى ، فلما قطع أمله منه كتب إلى أناس من
روساء أهل العراق يدعوهم إلى نفسه ويجعل لهم أموالاً عامة
وشروطاً وعهوداً وموائيق وعقوداً وكتب إلى إبراهيم بن الأشتر
يجعل له وحده مثل جميع ما جعل لأصحابه على أن يخلعوا عبد
الله بن الزبير إذا التقوا ، فاعلم إبراهيم بن الأشتر مصعب بن
الزبير بذلك وأشار عليه بضرب أعناق من كتب إليهم عبد
الملك أو يجبسهم ، فلم يفعل مصعب شيئاً من ذلك ، فلما التقت
جماعة عبد الملك وجماعة مصعب حولت جماعة مصعب رؤوسهم
وتركوه وخذلوه ومالوا إلى عبد الملك بن مروان وبقي مصعب
في سبعة نفر ، ثم قتل !

هذه سياسة من يعرف روح الجماعات ، فيسوس هذه
الجماعات من ناحية هذه الروح !

الحججاج

لئن دلت خطبة زياد في البصرة على جوهر سياسته النفسية
لقد دلت خطبة الحججاج في الكوفة على الجوهر نفسه ، ولكن
الفرق بين روح الخطبتين أن زياداً جمع في خطبته بين الشدة
واللين وهذا الجمع إنما هو عنوان سياسته في كل أيامه ، أما
الحججاج فإنه اقتصر على الشدة وحدها ، وما عرضت على ذهني
خطبته في الكوفة إلا تراءت لي في صاحبها أشياء غير بلاغته ،
لقد انكشف لي بعد تقليب النظر في هذه الخطبة السر في توفيق
الحججاج من أول يوم ولى فيه العراق ، فليس بالأمر الهين أن
ينقاد الناس إليه هذا الانقياد ، ثم ينبسط سلطانه هذا الانبساط ،
فكيف خضع أهل المسجد خضوعهم الذي عرفناه ، وكيف سكتوا
سكوتهم الذي عهدناه ، لقد انتدب الحججاج ، لا بل قد ندب
نفسه إلى أمر تهيمه شيوخ بني أمية وخافوا خواتيمه ، أفليس
بالأمر العجيب أن يخرج عبد الملك إلى أصحابه ويقول لهم ثلاث

مرات : ويلسكم ! من للعراق ! فيضمت القوم ، وينبرى الحجاج فيقول : والله أنا لها يا أمير المؤمنين ، فيقول له عبد الملك : أنت زنبورها ، ويكتب إليه عهده .

ليس هذا كله بالأمر اليسير ، فعلى أى شىء اعتمد الحجاج فى الإقدام على أمر أحجمت عنه مشيخة بنى أمية ، وما هى العدة التى أعدها وهياها لمثل هذا الإقدام ، وهو لو هفا فيه أقل هفوة لذهبت عفوته بحياته و بسطان بنى أمية فى العراق .

لقد اجتمعت له أسباب كثيرة مكنته من التوفيق فى سياسة العراق ، فى جملتها معرفته بطبائع الناس ، وتنويمه القوم ببلاغته وفورة شبابه ، وحيطة لأمره ، وأشياء غيرها اختص بها فى سياسة العراق لا مجال لذكرها فى مثل هذا المقام ، لأن الكلام على سر توفيقه من أول خطبة خطبها ، لما فى هذه الخطبة من الأسرار النفسية .

لقد قال الناس فى الحجاج بن يوسف وأبيه ما قالوا ، وأنشدوا شاهداً من الشعر على أن الحجاج وأباه كانا معلمين بالطائف ، ولما قدمت وفود العراق على سليمان بن عبد الملك بعد ما استخلف أمرهم بشتى الحجاج ، فقاموا يشتمونه ، فقال بعضهم : إنه كان

عبدًا زَبَّابًا ، قنَّور بن قنَّور ، لا نسب له في العرب .

على أن فيلسوف المؤرخين وأعني به ابن خلدون ، تعرض في مقدمته لنسب الحجاج وأبيه ، ولأمر تعليمهما في الطائف ، فوضح هذا الأمر أكمل توضيح ، فقد نبه على أخطاء المؤرخين ، ومن جملتها ما نقلوه من أحوال الحجاج ، وأن أباه كان من المعلمين ، فذكر أن التعليم في صدر الإسلام وفي صدر الدولتين ، الأموية والعباسية ، لم يكن فيه شيء من الغضاضة ، فقد كان أهل الأنساب والعصبية الذين قاموا بالملة هم الذين يعلمون كتاب الله وسنة نبيه ، تبليغاً للخير ، لا التماساً للعاش ، إذ الكتاب إنما هو كتابهم المنزل على الرسول منهم ، وبه هدايتهم ، والإسلام دينهم ، قاتلوا عليه وقتلوا ، واختصوا به من بين الأمم ، لم يقعد بهم عن هذا التعليم شيء من كبرهم وأنفتهم ، ويشهد بذلك بعث النبي صلى الله عليه وسلم كبار أصحابه مع وفود العرب يعلمون الناس حدود الإسلام وما جاء به من شرائع الدين .

ولم يدخل التعليم في جملة الصناعات والحرف إلا بعد استقرار الإسلام ، فاشتغل حينئذ أهل العصبية بالملك والسلطان ، وشمخت أنوف المترفين عن التصدي للتعليم ، فانتحله المستضعفون

من الناس ، وصار منتحله محترقاً عند أهل العصبية والملك ،
والحجاج بن يوسف كان أبوه من سادات ثقيف وأشرافهم ،
ومكانة ثقيف من عصبية العرب ومناهضة قريش في الشرف
معلومة ، فلم يكن تعليمه القرآن للمعاش ، وإنما كان للأُمُور التي
وصفها ابن خلدون في الكلام المتقدم .

وعلى هذا الوجه لم يبق شك في أن التعليم لم يحط من قدر
الحجاج أو من مقادير أبيه وأخيه ، وكثيراً ما نخر الحجاج بأنه
ابن الأشياخ من ثقيف والعقائل من قريش ، وإذا كنت قد
تبسطت في هذه القضية بعض التبسط فذلك لأنني أرى في
ممارسة الحجاج لصناعة التعليم سرّاً من أسرار نجاح سياسته ،
فقد مكّنه هذا التعليم من الوقوف على الطبائع والتغلغل إلى
بواطن النفوس وكشف الغطاء عن مواطن الترغيب والترهيب ،
وعن مواضع الغضب والرضى والطاعة والعصيان ، وعن الزمن
الذي تنفع فيه الشدة والزمن الذي ينفع فيه اللين فإن صلة المعلم
بطلابه تمهد له السبيل إلى النفوس البشرية فتصبح له ملكة
خاصة في سياسة الناس ، وفي استمالتهم وتغييرهم وفي استشارتهم
وتسكينهم وأمثال هذا كله ، وليس معنى كلامي أن كل معلم

يرزقه الله تعالى هذا الحظ من المعرفة ، ففي المعلمين مغفلون كما في كل طبقة من طبقات الناس ، ولكن رجلاً مثل الحجاج اختصه الله بمثل ما اختصه به من فضل السياسة قد زاده التعليم سعة في هذا الفضل ، فلما ولى العراق وقذف في مسجد الكوفة بالخطبة التي قذف بها ، وكأنها نار جهنم ، كان عالماً بطبائع الناس ، واقفاً على المذاهب التي ترهبهم وتفزعهم ، ولولا معرفته هذه لما جرؤ على مثل ما جرؤ عليه في الكوفة ، وأهل المسجد الذين سمعوا هذه الخطبة لم يكن هواهم في بنى مروان ، وما منهم رجل جالس في مجلسه إلا ومعه العشرون والثلاثون من أهله ومواليه ، فلم يتحرك أحد منهم .

إلا أن التعليم لم يكن السبب الأوحد في توفيق الحجاج ، فإن بلاغة الحجاج كانت عاملاً من عوامل هذا التوفيق ، ولم ينكشف تأثير الكلام في الجماهير انكشافه في عصرنا هذا ، فإن أكثر رجال السياسة المبرزين في سياستهم هم أمراء البيان ، ومن لم يكتب له نصيب من هذه البلاغة قل حظه من التوفيق في السياسة ، والحجاج في هذا الميدان فارس في الرعيل الأول من الفرسان ، فقد ذكروا عنه أنه إذا صعد المنبر تلعف بمطرقه ،

ثم تكلم رويداً فلا يكاد يسمع ، ثم يتردد في الكلام حتى يخرج يده من مطرفه ويزجر الزجرة فيفزع بها أقصى من في المسجد ، وقال فيه مالك بن دينار : ربما سمعت الحجاج يخطب ، ويذكر ما صنع به أهل العراق وما صنع بهم ، فيقع في نفسى أنهم يظلمونه وأنه صادق ، لبيانه وحسن تخلصه بالحجج ، ولست أشك في أن شكله الشاذ كان له بعض التأثير الشاذ في الجماعات فضلاً عن بلاغته ، فقد كان أخيفش العينين ، متساق الأجنان ، أصك الرجلين .

فأول خطبة خطبها في السكوفة كان لها أبلغ أثر في توفيقه ، ولقد تصرف في خطبته هذه تصرف العارفين بأسرار التأثير ، فإن صعوده المنبر مثلما ، متكباً قوسه ، ثم جلوسه واضعاً إبهامه على فيه ، ثم تكلمه رويداً ، ثم ترديده في الكلام ، ثم زجرته ، كل هذا من الأمور التي ميّلت الأنظار إليه ، فالحجج ملك عيون الناس قبل الشروع في الكلام ، وهذا باب من أبواب البراعة ، ولو خطب من فوره دون هذه الحركات كلها أضعف سلطانه على القلوب ، ولكنه أحب قبل كل شيء أن يميكن العيون منه ، فلما تمكنت منه هذا التمكن ، وغص المسجد بأهله

حسر اللثام عن وجهه ، ثم قام ونحى العمامة عن رأسه ، ثم انبعق في الكلام وكان من أمره ما كان .

ولا ريب في أن الحجاج لما قذف بأوائل خطبته علم العلم كله أنه نوم أهل المسجد ، على تعبير عصرنا هذا ، والتنويم أسلوب من الأساليب النفيسة ، فسلبهم إرادتهم وشعورهم وتفكيرهم ، وعرف أنهم لا يستطيعون أن يتصرفوا في شيء من هذه الإرادة ومن هذا الشعور ومن هذا التفكير ، فأخذ يلعب بهم كما يلعب الطفل بالتصاوير ، واستمر على طرازه من الشدة في الكلام والغلظة فيه دون أن يخشى خروج أحد عليه من أهل المسجد ، فكان القوم قيد إرادته وقيد إشارته ، يأمرهم فيأتمرون وينهاهم فينتهون ، وأكبر دليل على ذلك قوله لهم : يسلم عليكم أمير المؤمنين فلا تردون عليه السلام ، فلما قال قوله هذا ، قال أهل المسجد كلهم : وعلى أمير المؤمنين السلام ورحمة الله وبركاته ! ولم يشغب عليه شاغب .

وإذا أضفنا إلى بلاغة الحجاج قوة شبابه عرفنا أن هذا الشباب عامل آخر من عوامل توفيقه ، فإن الشيوخ يقيمون لجلال الأمور أوزانها ، فلا يفتحون في الأغلب من أحوالهم في

الذي يقتحم فيه الفتیان ، وحجة ذلك أن عبد الملك بن مروان لما انتدب أصحابه إلى العراق تهيّبوا الأمر وحذروه ، فإن دم الشباب في الإقدام على عظام الأمور غير دم الشيوخ ، وقد كان الحجاج في أول ولايته العراق في مستقبل العمر ، كان عمره ينيف على ثلاثين سنة ، وكان واثقا بنفسه الثقة كلها ، علما بأنه أمر السكينة التي نثرها عبد الملك طعما وأحذها سنانا وأشدّها مكسرا ، ومع هذا كله فقد أخذ بالحيلة في أمره ، فلم يقدم العراق على ما ذكره بعض المؤرخين في ثمانية رجال أو تسعة على النجائب ، وإنما قدم الكوفة ومعه جيش ولكنّه لما بلغ القادسية أمر الجيوش أن يقيموا وأن يروحوا وراءه ، ودعا بجمل عليه قتب ، فجلس عليه بغير خشب ولا وطاء ، وأخذ كتاب عبد الملك بيده ، ولبس ثياب السفر ، وتعم بعمامة حتى دخل الكوفة وحده ، ولم يدخل بغداد ، كما قال بعضهم ، فإن بغداد من بناء المنصور ، فلم تكن في أيام الحجاج ، وعلى هذا لم يبلغ منه التهور أن يقدم العراق في ثمانية رجال أو تسعة ، وإنما ترك جيشه في القادسية وهي على أبواب الكوفة ، فإن شباب الحجاج لم يمنعه عن حيلة

الشيوخ ، فهو أعقل من أن يجرؤ على العراق دون الاستعانة
بالجيش ، والعراق يومئذ جبل من نار !

وإذا كان زياد قد نجحت سياسته لجمعها بين الشدة واللين ،
فإن الحجّاج قد نجحت سياسته لانفرادها بالشدة وحدها ،
ولا يخطرن ببال أحد أنى فى مقام أحسن فيه الشدة أو أحرص
عليها ، وإنما اضطررت إلى ذكرها لأنها عنوان سياسة الحجّاج
المبنية على علم النفس ، ولولا نصيبه من السياسة النفسية لما
احتمله العراق عشرين سنة !

موسى بن نصير

لقد كانت لموسى بن نصير شهرة في التاريخ تكاد تكون
منقطعة النظير ، ولكن عوامل هذه الشهرة لا تزال غامضة ،
فمن أية النواحي فهم روح السياسة النفسية ، كان عقد
عبد العزيز بن مروان لموسى بن نصير على إفريقية فاتحة خير في
تاريخ العرب ، فقد ذكر بعض المؤرخين أنه قدم إفريقية وحولها
مخوف ، بحيث لا يقدر المسلمون أن يبرزوا في العيدين لقرب العدو
منهم ، وكانت جبالها كلها محاربة لا ترام ، وكذلك عامة السهل ،
فما ترك القلاع والجبال الممتعة حتى وضع الله أرفعها وذل أمنعها ،
وفتحها على المسلمين . ومن أراد أن يعرف البلاد التي فتحها ،
ومقادير الغنائم التي غنمها المسلمون من الآلى والجواهر
واليواقيت والفضة والذهب والزبرجد فليرجع إلى كتب التاريخ .

ولما فرغ من إفريقية وجّه مولاة طارقاً إلى الأندلس ثم لحق
به ، ففتح المدائن يميناً وشمالاً ، وقد أظهره الله ونصره وفتح على

يديه ما لم يفتح على يدى أحد ، ودانت له الأندلس ، وما هزمت له راية ولا فُضَّ له جمع ولا نكب المسلمون معه نكبة حتى مات ، ولو انتقاد الناس له لقادهم إلى رومية على حسب ما قال ، فقد كان مبارك الغزوة فى سبيل الله بعيد الأثر ، طويل الجهاد ولكن ما السرُّ فى هذا التوفيق العظيم ؟ لا شك فى أن فى ذلك عوامل كثيرة ، سأل سليمان بن عبد الملك موسى بن نصير عما كان يفرغ إليه فى حرب عدوه ؟ قال : التوكل والدعاء إلى الله يا أمير المؤمنين ، قال له سليمان : هل كنت تمتنع فى الحصون والخنادق ، أو كنت تخندق حولك ؟ قال : كل هذا لم أفعله ، قال : فما كنت تفعل ، قال : كنت أنزل السهل ، وأستشعر الخوف والصبر ، وأتحصن بالسيف والمغفر ، وأستعين بالله وأرغب إليه فى النصر .

قد يكون هذا كله سبباً من أسباب توفيق موسى بن نصير ، ولكنى أرى فى القسم الأخير من هذا الخبر السبب الأهم ، قال له سليمان : فمن كان من العرب فرسانك ؟ قال : حمير ، قال : فأى الأمم فى تلك البلاد كانوا أشد قتالا ؟ قال : إنهم يا أمير المؤمنين أكثر مما أصفهم ، قال له : أخبرنى عن الروم ؟ قال :

أسود في حصونهم ، عقبان على خيولهم ، نساء في مواكبهم ،
 إن رأوا فرصة افترضوها ، وإن خافوا غلبة فأوعال ترقل في
 أجبال ، لا يرون عاراً في هزيمة تكون لهم منجاة ، قال : فأخبرني
 عن البربر ، قال : هم يا أمير المؤمنين أشبه العجم بالعرب لقاء
 ونجدة وصبراً وفروسية وسماحة وبادية ، غير أنهم يا أمير المؤمنين
 غدر ، قال : فأخبرني عن الأشيان ، قال : ملوك مترفون ،
 وفرسان لا يجبنون ، قال : فأخبرني عن الإفريج ، قال : هناك
 يا أمير المؤمنين العدد والعُدَّة والجلد والشدة ، وبين ذلك أم
 كثير ، ومنهم العزيز ومنهم الذليل ، وكل قد لقيت بشكله ،
 فمنهم المصالح ومنهم المحارب المقهور والعزيز المبدوخ .



أجل ، إنى أرى في هذا كله أعظم الأسباب في توفيق موسى
 بن نصير ، لقد دخل إفريقية والأندلس وهو لا علم له بأخلاق أهلها
 وطبائعهم ، فأقام بإفريقية ست عشرة سنة على مارواه بعض
 المؤرخين وأقام في الأندلس عشرين شهراً ، فاستطاع في خلال
 هذه المدة الطويلة أن يخبر أخلاق الأمم التي كان يحاربها
 ويدعوها إلى طاعة أمير المؤمنين ، وأن يبلى طبائعهم ، حتى عرف

شجاعة الشجعان منهم وجبن الجبناء ، وكشف عن عيوبهم
وفضائلهم ، واهتدى إلى مواطن الضعف والقوة في أخلاقهم ، فلقى
كل أمة بما يشاكلها ، وزحف إليها بما يناسبها ، ولعمري إن
هذه المعرفة الخلقية هي التي أعانته على فتح إفريقية أولاً والأندلس
ثانياً ، وليس باليسير أن يظفر بعدوٍ فيه عدد وعُدّة وفيه جلد
وشدة وفيه نجدة وصبر ، ولكنه قبل أن يعمل السيف في هذا
العدو أعمل فيه الفكر ، فاستعان بما هداه إليه هذا الفكر من
الكشف عن أخلاق العدو وإبراز بواطنه ، وأعتقد أن موسى
ابن نصير إذا نجحت سياسته في إفريقية والأندلس فإن لمعرفته
النفسية بأخلاق أهل البلاد التي افتتحها سرّاً عظيماً وأثراً بليغاً .
وكما كان حاذقاً في معرفة أخلاق الأمم فقد كان حاذقاً في
معرفة أخلاق الأفراد ، فقد تجهز سليمان بن عبد الملك للحج سنة
ثمان وتسعين ، وأمر موسى بن نصير بالشخص إلى الحج معه ،
فذكر له موسى أنه ضعيف ، فأمر له سليمان بثلاثين نجيباً موقورة
جهازاً وبحجرة من حجرة وجائزة ، فحج سليمان وحج معه موسى ،
فبينما هو يسير يوماً إذ دعا بموسى فناداه خالد بن الريان وكان
موسى يسير رجلاً ، فلم يلتفت موسى إلى ندائه ، ثم دعا به

سليمان فناداه خالد أيضاً ، فلم يلتفت إليه ، فقال له الرجل :
غفر الله لك ألم تسمع دعاء أمير المؤمنين ؟ إني أخافه وأخاف أن
يغضب ! فقال موسى : ذاك لو كان عبد الملك أو الوليد ، فأما
هذا فإنه يرضيه ما يرضى الصبي ويسخطه ما يسخطه ، وسترى
ذلك ، ثم تقدم موسى حتى لحق واصق بسليمان ، فقال له سليمان :
أين كنت يا ابن نصير ؟ فقال له : يا أمير المؤمنين ، أين دوابنا
من دوابك ! إني منذ دعاني أمير المؤمنين اني كذبت حتى لحقت
أمير المؤمنين ، فضحك سليمان وأمر له بدواب من مراكبه ،
فسايره وحادثه ثم انصرف عنه ، فلحق الرجل به ، فقال له
موسى : كيف رأيت ؟ فقال الرجل : أنت أعلم به !

ليس بكثير على رجل مثل موسى بن نصير أن يعرف أخلاق
سليمان بن عبد الملك ، وقد عرف أخلاق أمم بمخادفها ، إن
عملاً مثل العمل الذي تقدم ذكره كان كافياً أن يعود
بسليمان إلى الحق على موسى بن نصير ؛ فإن سليمان بن عبد الملك
لا ينسى إساءة موسى إليه ، وأخباره مع موسى مشهورة ، وكذلك
مع الحجاج ، فإنه لما استخلف بعد أخيه الوليد كان أحق الناس
على الحجاج وعلى موسى بن نصير ، وكان حنقه عليهما لأمر

يطول ذكره ، أما الحجاج فقد أدركته الوفاة قبل خلافته وأما موسى بن نصير فقد همّ بصلبه وشتمه وخوّفه وتواعده ثم قاضاه على أموال قبضها سليمان بن عبد الملك وخلى سبيله ، ثم رضى عنه وندم على يمين كان أقسم بها أن لا يوليه شيئاً ، وكان يقول : إن مثل موسى لا يستغنى عنه . والخلاصة أن موسى بن نصير خبر أخلاق سليمان بن عبد الملك أتم خبرة ، وقد نجتّه هذه الخبرة من تجديد الحقد عليه أو قتله ، كما نجتّه أمواله في المرة الأولى من هذا القتل ، فإن كلمة واحدة صهّبا في موضعها أخرجت سليمان بن عبد الملك من طورٍ إلى طور ، أخرجته من الغضب إلى الرضا ، فليس بقليل أن يدعو أمير المؤمنين برجل من رجاله مرتين وأن لا يلتفت هذا الرجل إلى دعوته ، ولكن موسى بن نصير عرف كيف يمدح سليمان بن عبد الملك . عرف مواطن الضعف فيه ، فجاءه من هذا المواطن ، فإن كلمته : أين دوابنا من دوابك ، كافية أن تجعل سليمان بن عبد الملك يشعر بأنه الخليفة وبأن صاحب هذه الكلمة دونه منزلةً وجاهاً ، وشعوره هذا هو الذى أخرجه من الغضب وردّه إلى الرضا ، ولكن المهارة فى أن يعرف موسى بن نصير من خليفته هذا الخلق ، وأن يعالجه من هذه الناحية إذا وقع فى ورطة معه .

آخر خلفاء بني أمية

لئن افتتحت خلافة بني أمية بجماعة تمكنوا من بناء سياستهم على أصول علم النفس ، أمثال معاوية وعبد الملك بن مروان وهشام بن عبد الملك ، لقد اختتمت بخليفة غلط غلطة نفسية كان فيها ضياع حياته وحياة أهله ، ولو لم يغلطها لعاد إليه ملكه ، وهو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم .

ما هذه الغلطة النفسية ؟

روى المسعودي في تأريخه أن إسماعيل بن عبد الله القشيري قال : دعاني مروان وقد وافى على الهزيمة إلى حرّان ، فقال : يا أبا هاشم ! وما كان يكتنني قبلها ، قد ترى ما جاء من الأمر وأنت الموثوق به ولا مخبأ بعد بؤس ، فما الرأي ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ! علام أجمعت ؟ قال : على أن أرتحل بموالي ومن تبعني من الناس حتى أقطع الدرب وأميل إلى مدينة من مدن الروم فأنزها ، وأكتب صاحبها ، وأستوثق منه ، فقد فعل ذلك جماعة

من ملوك الأعاجم وليس هذا عاراً بالملوك ، فلا يزال يأتيني الخائف والهابط والطامع ، فيكثر من معي ، ولا أزال على ذلك حتى يكشف الله أمري وينصرني على عدوي ، فلما رأيت ما أجمع عليه وكان الرأي ، ورأيت آثاره في قومي من قحطان وبلاءه عندهم ، فقلت : أعيذك بالله يا أمير المؤمنين من هذا الرأي ، تحكم أهل الشرك في بناتك وحرملك ، وهم الروم ، ولا وفاء لهم ، ولا تدري ما تأتي به الأيام ، وأنت إن حدث عليك حادث بأرض النصرانية ، ولا يحدث إلا الخير ، ضاع من بعدك ، ولكن اقطع الفرات ، ثم استنفر الشام جنداً ، فإنك في كنف وعزة ، ولك في كل جند صنائع يسرون معك حتى تأتي مصر ، فإنها أكثر أرض الله مالاً وخيلاً ورجالاً ، ثم الشام أمامك ، وإفريقية خلفك ، فإن رأيت ما تحب انصرفت إلى الشام ، وإن كانت الأخرى مضيت إلى إفريقية ، قال : صدقت ! وأستخير الله ، فقطع الفرات ، ووالله ما قطعه معه من قيس إلا رجلان : ابن جندة السلمي ، وكان أخاه من الرضاعة والسكران بن الأسود الغنوي ، ولم ينفع مروان تعصبه مع النزارية شيئاً ، بل غدروا به وخذلوه ، فلما اجتاز ببلاد قنسرين والحاضر أوقعت تنوخ

القاطنة بقنسرين بساقته ووثب به أهل حمص، وسار إلى دمشق فوثب به الحرث بن عبد الرحمن الحرشي، ثم أتى الأردن فوثب به هاشم بن عمر العنسي والمذحجيون جميعاً، ثم مر بفلسطين فوثب الحكيم بن صنعان بن روح بن زنباع، لما رأوا من إدار الأمر عنه، وعلم مروان أن إسماعيل بن عبد الله القشيري قد غشه في الرأي، ولم يمحضه النصيحة، وأنه فرط في مشورته إياه إذ شاور رجلاً من قحطان موتوراً متعصباً من قومه على أضدادهم من نزار، وأن الرأي الذي هم بفعله من قطع الدرب ونزول بعض حصون الروم ومكاتبة ملكها إلى أن يرتئي في أمره كان أولى. إنني أنظر إلى هذا الخبر من ناحية الغلطة النفسية فيه لا غير، ولا أنظر إليه من وجه الصواب أو الخطأ في لجوء مروان إلى بلاد الروم، فإن استشارة مروان لرجل موتور، واستعداده للأخذ برأيه غلطة نفسية، وفضلاً عن ذلك فقد كان يجب عليه أن يعرف أن نظرة جماعته إليه والأمر مقبل عليه تختلف عن نظرتهم إليه والأمر مدبر عنه، فالتناس عادة ينفضون من حول صاحب سلطان إذا ضعف سلطانه، وربما كانوا حرباً عليه، وقد فطن مروان إلى هذه الغلطة، ولكن بعد حين، على أنه كان يديم

قراءة سير الملوك وأخبارها في حروبها من الفرس وغيرهم من ملوك الأمم ، وبعض المؤرخين كانوا يرون أنه أحزم بني مروان وأنجدهم وأبلغهم ، وسكنه ولي الخلافة والأمر مدبر ، فقد جاء أجله ، وأجل بني أمية في الشام ، حتى قتل في مصر وهبت دولة بني العباس .

ومن هذا القبيل قتل بني العباس لرجال بني أمية في الشام ، فقد غلط بقايا بني أمية الغلطة نفسها التي غلطها آخر خلفائهم . ذكر ابن قتيبة أن أبا العباس ولي عمه عبد الله بن علي الذي يقال له السفاح ^(١) الشام ، وأمره أن يسكن فلسطين ، وأن يجد السير نحوها ، وهناه بما أصاب من أموال بني أمية ، وكتب إلى صالح بن علي أن يلحق بمصر والياً عليها ، فقدم السفاح فلسطين ، وتقدم صالح إلى مصر ، فأتاها بعد قتل مروان بيومين ، وإن السفاح بعث إلى بني أمية وأظهر للناس أن أمير المؤمنين وصاه بهم وأمره بصلتهم وإحاطهم في ديوانه ورد أموالهم عليهم ، فقدم عليه من أكابر بني أمية وخيارهم ثلاثة وثمانون رجلاً ،

(١) لقب السفاح قد جعل في بعض كتب التاريخ للخليفة نفسه أبي العباس عبد الله بن محمد .

وكان فيهم عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك ، وأبان بن معاوية بن هشام ، وعبد الرحمن بن معاوية ، وغيرهم من صناديد بني أمية ، فأما عبد الرحمن بن معاوية فلقبه رجل كان صنع به برًا وأسداً خيراً وأولاه جميعاً فقال له : أطعني اليوم في كلمة ، ثم اعصني إلى يوم القيامة ، فقال له عبد الرحمن : وما أطيعك فيه اليوم ؟ فقال له الرجل : أدرك موضع سلطانك وقاعدتك المغرب ، النجاء ! النجاء ! فإن هذا غدر من السفاح ، يريد قتل من بقي من بني أمية ، فقال عبد الرحمن : ويحك إنه كتاب أبي العباس قدم عليه يأمره فيه بصلتنا ورد أموالنا إلينا وإلحاقنا بالعطاء الكامل والرزق الوافر ، فقال له الرجل : ويحك أتفعل ، والله لا يستقر ملك بني العباس ولا يستولون على سلطان ومنكم عين تطرف ! فقال له عبد الرحمن : ما أنا بالذي يطيعك في هذا ، فقال الرجل : أفتأذن لي أن أنظر إلى ما تحت ظهرك مكشوفاً ؟ فقال له : وما تريد بهذا ؟ فقال له : أنت والله صاحب الأمر بالأندلس ، فاكشف لي ، فكشف عبد الرحمن عن ظهره ، فنظر فإذا العلامة التي كانت في ظهره قد وجدت في كتب الحدثنان ، وكانت العلامة خالاً أسود عظيماً مرتفعاً على الظهر ، هابطاً ، فلما نظر إليه الرجل

قال له : النجاء ! النجاء ! والهرب ! والهرب ! فإنك والله صاحب الأمر ، فأخرج ، فأنا معك ، ومالي لك ، ولى عشرون ألف دينار مصرورة كنت أعددتها لهذا الوقت . . . إلى آخر ما جاء فى هذا الحديث ، ثم ولى عبد الرحمن ذاهباً وخرج لا يدرى متى خرج ، فلحق بالمغرب .

وأقبل القوم من بني أمية ، وقد أعد لهم السفاح مجلساً فيه أضعافهم من الرجال ومعهم السيوف والأجرزة ، فأخرجهم عليهم ، فقتلهم وأخذ أموالهم ، واستعفى عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك ، وكان عبد الواحد قد بذ العابدين فى زمانه وسبق المجتهدين فى عصره ، فركب السفاح إلى أموال عبد الواحد وكان عبد الواحد قد اتخذ أموالاً معجبة تطرد فيها المياه والعيون ، فأمره السفاح أن يصيرها إليه ، فأبى عليه واختفى منه ، فأخذ رجالاً من أهله ، فتواعدهم السفاح وأمر بحبسهم حتى دلوه عليه ، فلما قبضه أمر بقتله ، ثم استقصى ماله ، فبلغ ذلك أبا العباس أمير المؤمنين ، وكان أبو العباس يعرفه قبل ذلك ، وكان عبد الواحد أفضل قرشى كان فى زمانه عبادة وفضلاً ، فقال أبو العباس : رحم الله عبد الواحد ! أما والله كان يقاتل المقاتلة ولا ممن يشار

إليه بفاحشة ، وما قتلتها إلا أمواله ، ولولا أن السفاح عمى وذمامه
ورعاية حقه على واجب لأقدت منه ، ولكن الله طالبه ، وقد كنت
أعرف عبد الواحد برّاً تقيّاً صواماً قواماً ، ثم كتب إلى عمه
السفاح أن لا يقتل أحداً من بني أمية حتى يعلم به أمير المؤمنين ،
فكان هذا أول ما نقم أبو العباس على عمه السفاح .

فالذى يهمننا من الخبر كله الغلطة النفسية التي غلطها رجال
بني أمية في أول دولة بني العباس ، فقد أصاب الرجل الذي
نصح لعبد الرحمن بن معاوية بن هشام لما قال له : ويحك !
أنفعل ، والله لا يستقر ملك بني العباس ولا يستولون على سلطان
ومنكم عين تطرف ! هذا هو كلام الذين يعرفون أسرار النفوس
ويقفهون ما تنطوى عليه ، نخطأ صناديد بني أمية الذين قتلهم
عبد الله بن علي كان في انخداعهم بأقوال رجال من بني العباس
موتورين ، وهذا الانخداع هو الذي أودى بحياتهم كما أودى
انخداع مثله بحياة آخر خلفائهم في الشام ، وأشباه هذه الانخداعات
إنما هي عواقب غلطات نفسية في السياسة .

سياسة المال

تبين لنا في كل ما تقدم من الفصول أن كثيراً من عمال العرب وأمرائهم وخلفائهم ساسوا الناس من ناحية الاتصال بنفوسهم والوقوف على أسرارها ، وقد أحببت أن أبين في هذا الفصل أن كثيراً منهم ساسوا الخلق من ناحية تأثير المال في النفوس .

يعلم كل واحد منا أن قضية المال في سياسة الحكومات من أدق القضايا . إنها مطمح أنظار الشعب ، وموضوع أحاديثه في المجالس ، ومجال خواطره ، ولا شيء يحيط من مقادير الحكومات في نفوس الأمة ، ويذهب من هيبتها في العيون ، ويمجّل في القضاء على سلطانها ، مثل الطمع في مال الشعب واستلاب هذا المال وتبديده . هذه أمور نفسية فطن إليها أهل الاستقامة من عمال المسلمين وأمرائهم وخلفائهم ، فأكثروا من الكلام على المال في خطبهم ، وأفاضوا في التعريض به ، فنجحت

سياستهم ورشدت أعمالهم ، لأنها مبنية على فرط علمهم بروح الأفراد والجماعات من جهة المال .

من خطب أبي بكر رضى الله عنه خطبة ورد فيها ما يلى :
 « أيها الناس من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أبا بن كعب ، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت ، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل ، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني ، فإن الله جعلني له خازناً وقاسماً » .

عرف أبو بكر اهتمام الناس بالمال ، فتوسع في العلم بصرفه في وجوهه ، فقسمه في أزواج رسول الله ، ثم في المهاجرين الأولين ، ثم في الأنصار ، فلم يبدد مال المسلمين بحسب الهوى ، وإنما أنفقه في أحسن الوجوه وأتمها ، حتى استقامت له طاعة الناس ، ولم يكن لأستهم سلطان عليه ، ومن حديث ابن وهب عن الليث أن أبا بكر لم يكن يأخذ من بيت المال شيئاً ولا يجري عليه من النفي درهما إلا أنه اقترض منه مالاً فلما حضرته الوفاة أمر عائشة برده . وجاء بعده عمر بن الخطاب فسار في الرعية من ناحية المال

السيرة نفسها ، فقال في جملة خطبه :

« إنما أبعث عمالي ليعلموكم دينكم وسنتكم ، ولا أبعثهم

ليضر بوا ظهوركم ويأخذوا أموالكم ، ألا من رابه شيء من ذلك
فليرفعه إلى ، فوالذي نفسى بيده لأقصنكم منه .

لقد علم سيدنا عمر بمنزلة المال في نفوس الأمة فاستمال الناس
إليه بقوله : ولا أبعنهم ليأخذوا أموالكم ، إنه يعرف المعرفة كلها
أن أخذ المال لأموال الشعب سبيل إلى خروج الشعب على رجال
الحكومة ، ثم إلى موت حكومتهم .

كان يجري عليه درهمين كل يوم ، وكان خشن الملبس ،
يلبس الجبة الصوف المرقعة بالأديم ويشتمل بالعباءة ، ويحمل
القربة على كتفه ، وكان أكثر ركابه الإبل ورحله مشدودة بالليف ،
مع ما فتح الله عليه من البلاد وأوسعها من المال ، وقد اتبعه عماله
في هذه الشيم والأخلاق ، وما أظن أن في حاجة إلى التنبيه على
مصادرتة لعماله على أموالهم في بعض الأحيان ، فقد كان فريق
منهم تظهر عليهم آثار النعمة ورزقهم لا يهيئ لهم مثل هذه النعمة ،
فيشك عمر في سيرتهم ويحاسبهم على أموالهم ، وفي كتب التاريخ
كثير من الشواهد على ذلك ، ولم أذكر ما ذكرت إلا للإشارة
إلى زهده في بيت المال وحرصه على مال المسلمين . وهذا ما حبيه
إلى الناس ، وجعل سياسته فيهم رشيدة ، فضلا عن صفاته الأخرى

التي تخرج عن موضوعي في هذا الكتاب ، ولما مات لم ير المسلمون يوماً أكثر نشيجاً من يومه !

أما عثمان بن عفان فقد قيلت في سياسته أقوال مختلفة ، ولكنني في هذا المقام لا أتعرض إلا لناحية واحدة من هذه السياسة ، وهي ناحية المال ، فلست في موضوع التعصب له أو التعصب عليه ، ولكنني أرجع إلى ما ذكره بعض المؤرخين في هذا الباب ، وأنظر في الذي دافع به عثمان عن نفسه في هذا المعنى .

قال ابن قتيبة في كتاب الإمامة والسياسة : ذكروا أنه اجتمع ناس من أصحاب النبي عليه السلام ، فكتبوا كتاباً ذكروا فيه ما خالف فيه عثمان من سنة رسول الله وسنة صاحبيه ، وما كان من هيبته خمس إفريقية لمروان وفيه حق الله ورسوله ، ومنهم ذوو القرى واليتامى والمساكين ، وما كان من تطاوله في البنيان حتى عدوا سبع دور بناها بالمدينة ، داراً لفائلة ، وداراً لعائشة ، وغيرهما من أهله وبناته ، وبنيان مروان القصور بذى خشب^(١) ، وعمارة الأموال بها من الخمس الواجب لله ورسوله .

(١) موضع باليمن .

وحدث البلاذري في كلامه على ما أنكروا من سيرة عثمان
أحاديث كثيرة أسندها إلى أصحابها .

منها : وكتب لمروان بن الحكم بخمس إفريقية وأعطى أقاربه
المال وتأول في ذلك الصلة التي أمر الله بها واتخذ الأموال واقترض
من بيت المال مالا وقال : إن أبا بكر وعمر تركا من هذا المال
ما كان لهما وإني آخذه فأصل به رحي ، فأنكر الناس ذلك عليه .
ومنها : أن عثمان كان يأخذ من الخيل الزكاة ، فأنكر ذلك
من فعله وقالوا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : عفوت لكم عن
صدقة الخيل والرقيق .

ومنها : كان عبد الله بن سعد بن أبي سرح أخا عثمان من
الرضاعة وعامله على المغرب ، ففزا إفريقية سنة سبع وعشرين
فافتتحها ، وكان معه مروان بن الحكم ، فابتاع خمس الغنيمة بمائة
ألف أو مائتي ألف دينار ، فكلم عثمان فوهبها له ، فأنكر الناس
ذلك على عثمان .

ومنها : لما بنى مروان داره بالمدينة دعا الناس إلى طعامه ، وكان
المِسْوَر فيمن دعا ، فقال مروان وهو يحدهم : والله ما أنفقت
في داري هذه من مال المسلمين درهما فما فوقه ، فقال المسور : لو

أكلت طعامك وسكت لكان خيراً لك ، لقد غزوت معنا إفريقية وإنك لأقلنا مالاً ورقيقاً وأعواناً وأخفنا ثقلًا ، فأعطاك ابن عفان خمس إفريقية ، وعملت على الصدقات ، فأخذت أموال المسلمين . ومنها : كان مما أنكروا على عثمان أنه ولي الحكم بن أبي العاص صدقات قضاة فبلغت ثلاثمائة ألف درهم ، فوهبها له حين أتاه بها .

ومنها : لما قدم الوليد بن العقبه الكوفة ألفى ابن مسعود على بيت المال فاستقرضه مالاً ، وقد كانت الولاة تفعل ذلك ، ثم ترد ما تأخذ ، فأقرضه عبد الله بن مسعود ما سأل ، ثم إنه اقتضاه إياه ، فكتب الوليد في ذلك إلى عثمان ، فكتب عثمان إلى عبد الله بن مسعود : إنما أنت خازن لنا ، فلا تعرض للوليد فيما أخذ من المال ، فطرح ابن مسعود المفاتيح وقال : كنت أظن أني خازن للمسلمين ، فأما إذ كنت خازناً لكم فلا حاجة لي في ذلك ، وأقام بالكوفة بعد إلقائه مفاتيح بيت المال .

ومنها : أنكر على عثمان مع ما أنكر أن حمى الحمى ، وأن أعطى زيد بن ثابت مائة ألف درهم ، من ألف ألف درهم حملها أبو موسى الأشعري ، وقال له : هذا حقك !

ومنها : كان في بيت المال بالمدينة سفظ فيه حلى وجوهر ، فأخذ منه عثمان ماحلّي به بعض أهله ، فأظهر الناس الطعن عليه في ذلك ، وكلموه بكلام شديد حتى أغضبوه .

ولما ورد المصريون المدينة وأحاطوا بهم وغيرهم بدار عثمان ، أشرف عليهم عثمان فقال : أيها الناس ! ما الذي تقمتم عليّ ، فإني معتبكم ونازل عند محبتكم ، فجعلوا يذكرون له أمراً أمراً مما أنكروا عليه ، فكان يرد على كل أمر ، فلما ذكروا له مال الله الذي أعطاه قرابته قال : اكتبوا به عليّ للمسلمين صكاً لأعجل منه ما قدرت على تعجيله وأسعى في باقيه .

من هذا يتبين لنا إقراره باعطائه قرابته المال ، فقد رد على كل أمر ، ما خلا أمر المال فإنه اعترف به .

ومما فتح العيون عليه أن الناس في عصر عمر بن الخطاب كانوا على كثير من خشونة الحياة اقتداءً بخليفتهم ، أما عثمان بن عفان فقد مال إلى النعيم ، فبنى داره في المدينة وشيدها بالحجر والكس ، وجعل أبوابها من الساج والعرعر ، واقتنى أموالاً وجناناً وعيوناً بالمدينة ، وخلف خيلاً كثيراً وإبلًا ، وكان عند خازنه من المال يوم قتل خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم

وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما مائة ألف دينار .
وقد سلك عماله وكثير من أهل عصره طريقته ، وتأسوا به في
فعله ، فافتنى جماعة من أصحابه الضياع والدور ، منهم الزبير
بن العوام فقد بنى داره بالبصرة وابتنى أيضاً دوراً بمصر والكوفة
والإسكندرية ، وبلغ مال الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار
وخلف ألف فرس وألف أمة وخططا بالأمصار المذكورة .

ومنهم طلحة بن عبيد الله التيمي ، فقد ابتنى داره بالكوفة
وكانت غلته من العراق كل يوم ألف دينار ، وقيل أكثر من ذلك ،
وبناحية سراة أكثر مما ذكر ، وشيد داره بالمدينة وبنائها
بالآجر والجص والساج .

ومنهم عبد الرحمن بن عوف الزهرى ، فقد ابتنى داره ووسعها
وكان على مربطه مائة فرس وله ألف بعير وعشرة آلاف من
الغنم ، وبلغ بعد وفاته ربع ثمن ماله أربعة وثمانين ألفاً .
ومنهم سعد بن أبي وقاص ، فقد بنى داره بالعقيق ورفع سمكها
ووسع فضاءها وجعل أعلاها شرفات .

وقد ذكر سعيد بن المسيب أن زيد بن ثابت حين مات
خلف من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس ، غير ما خلف

من الأموال والضياع بقيمة مائة ألف دينار .

وابتقى المقداد داره في الموضع المعروف بالجرف على أميال من المدينة ، وجعل أعلاها شرفات ، وجعلها محصنة الظاهر والباطن . ومات يعلى بن أمية وخلف خمسمائة ألف دينار وديوناً على الناس وعقارات وغير ذلك من التركة ما قيمته مائة ألف دينار . وختم المسعودي هذا الفصل بما يلي : وهذا باب يتسع ذكره ويكثر وصفه فيمن تملك من الأموال في أيام عثمان ، ولم يكن مثل ذلك في عصر عمر بن الخطاب ، بل كانت جادة واضحة ، وطريقة بيّنة .

ولقد ذكرت أسماء جماعة من أصحاب عثمان الذين اقتنوا الضياع والدور ، وما أظن أن القارى تهمة هذه الأسماء ، ولكنه إذا أراد أن يعرف تأثير هذا الاقتناء في أهل العصر الذى عاش فيه عثمان وجب عليه أن يضع نفسه موضع أحد أهل ذلك العصر ، كيف تكون حاله إذا كان في زمن رأى فيه رجال حكومته وأصحابهم وذويهم يقتنون الضياع ويننون القصور ويكثرزون الأموال ، ومعظم أهل الزمن يعيشون في ضيق ! إذا وضع القارى نفسه هذا الموضع هان عليه حينئذ فهم أسرار النعمة

على عثمان ، فإن فهمنا لماضى يزداد بقياسه إلى الحاضر ، فأكثر
مشاكل الماضى مشابهة لمشاكل الحاضر .

أجل ، لا يهمنا من غنى العمال الذين ذكرتهم شئ ،
فسواء علينا فقرهم وغناهم ، ونعيمهم وخشونتهم ، وإنما ننظر
إلى هذا الغنى والتوسع فى النفقة والبذخ من ناحية تأثيره النفسى
فى الأمة ، فالفاس يسوء عادة ظنهم برجال الحكومة الذين هم على
هذه الأخلاق ، ويسيطون الألسن فيهم فى الحق والباطل ،
ولا سيما إذا كانت الأمة فى شئ من ضنك الحياة فإن نعمتها على
رجال الحكومة فى مثل هذه الحال أشد ، وحقد ها عليهم أعظم ،
وقد يضعف المنطق فى شبه هذه الأحوال ، فتكثر التهم ، ويقل
التمحيص ، ويشتد الغلو ، ولكن فى هذا كله أمراً واقعاً وهو
مظاهر البذخ والإسراف والتبذير ، وهذه المظاهر هى التى تؤثر
فى عيون الناس وقلوبهم ، وتولد فى نفوسهم النعمة والحقد ، وتحملهم
على الوثوب برجال الحكومات والثورة عليهم .

إنى أعتقد أن فى بذخ جماعة عثمان واقتنائهم الضياع والدور
عاملاً من أقوى عوامل النعمة عليه ، ولقد ذهب المؤرخون فى
مقتله كل مذهب ، فمنهم من رأى أن السياسة التى جرى عليها

في استعمال أقاربه وأهل بيته كانت السبب في خاتمته الأليمة ،
 ومنهم من رأى أن هذا المقتل حرّض عليه جماعة يطمعون في
 الخلافة ، وكيف كان الأمر فقد كانت سياسته المالية باباً للفتنة
 ولولاها لما استطاعوا فتح هذا الباب ، أو كانوا يستطيعون فتحه
 من ناحية ثانية يفتشون عنها ، وعلى كل حال فقد كانت هذه
 السياسة غلطة نفسية ، فأنا إذا تكلمت عليها فإني أتكلم عليها من
 ناحية هذه الغلطة لا غير ، فها هي نتيجة سياسة من هذا الطرز
 إنها نتيجة أليمة ، محزنة ، ولكنها بنت الطبيعة ، لقد قتل سيدنا
 عثمان بأساليب لم يكن فيها شيء من الإنسانية ، فلا شفقة ولا
 رحمة ، لم تشفع له صحبة مع النبي ، ولا شفع له تكريم النبي إياه ،
 ولا طعنه في السن ، ولا فرط تقواه ، ولا شيخوخته الصالحة ،
 ولا مصحفه بين ركبتيه ، فالفاس إذا ثاروا على أمر من الأمور
 نظروا إلى مساوئ هذا الأمر ، فلا يروهم عن شدتهم شيء من
 الدين والشفقة والرحمة .



ولقد جاء بعد سيدنا عثمان خلفاء من بنى أمية أدركوا تأثير
 المال في الرعية ، وفهموا أسرار سياسته ، فكان فهمهم سر نجاحهم

منهم هشام بن عبد الملك ، وسأفرد له باباً خاصاً أختم به هذا الكتاب ، ومنهم يزيد بن الوليد ، فقد كان يزيد عالماً بروح الرعية في هذه السبيل ، فإنه لما قتل ابن عمه الوليد بن يزيد بن عبد الملك قام خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه وذكر الأسباب التي من أجلها خرج على ابن عمه ثم قال :

« أيها الناس إن لكم على أن لا أضع حجراً على حجر ، ولا لبنة على لبنة ، ولا أكرى نهراً ولا أكنز مالا ولا أعطيه زوجاً ولا ولداً ولا أنقل مالا من بلد إلى بلد حتى أسد فقر ذلك البلد وخصاصة أهله بما يغنيهم ، فإن فضل فضل نقلته إلى البلد الذي يليه مما هو أحوج إليه منه » .

جوهر هذا الكلام الواضح معرفة أصحابه بما يستثير جماهير الناس ، والدخول على هذه الجماهير من الباب الذي يرضيها ، فقد كان يزيد بن الوليد يعلم أن الناس ناقدون على تباهى من قبله بقصورهم ، وعلى كنزهم المال وإعطائه الزوج والولد ، وكان يسمع أحاديثهم في هذه الموضوعات ، لأن حواس الأمة بمجامعها يقظة متنبهة في مثل هذه الحال ، فانتفع يزيد بهذه النعمة ، وخرج على ابن عمه ، وتولى الأمر بسياسة مناقضة لسياسة من قبله ، فقد علم

أن لا شيء يغضب الجماعات مثل كنز رجال الحكومة للمال وإعطائه الزوج والولد والأهل والأصحاب ، ولا شيء يخوضون في ذكرهم في مجالسهم الخاصة والعامة مثل نهب الحكومات للمال ، فإن سياسة من هذا الشكل تقضى على الحكومة وعلى الشعب في وقت واحد ، فالحكومة التي يكون همها الأكبر سلب المال تفتتح عليها العيون ، فلا تنجو من انبساط الألسن فيها ، وقد تجر سياسة من هذا النوع إلى شيء أفظع من انطلاق الألسن .

شعر يزيد بن الوليد بهذا الأمر الدقيق فأخذ على نفسه في خطبته العهود والمواثيق أن لا يقع فيه ، ولو دققنا في آخر جملة من كلامه لانكشفت لنا معرفته ببواطن الجماعات الانكشاف كله ، فإن قوله : ولا أنقل مالا من بلد إلى بلد حتى أسد فقر ذلك البلد وخصاصة أهله بما يغنيهم ، فإن فضل فضل نقلته إلى البلد الذي يليه ممن هو أحوج إليه ، منه دليل واضح على تغافلهم إلى أعماق النفوس ، فإن نقمة الجماهير على رجال الحكومة تظهر في خلال نقل هؤلاء مال بلدهم إلى بلد آخر وهم في حاجة إليه ، والمال في هذا المقام يحتوى على كل ما ملكه الإنسان من كل

شئ ، فقد عرف يزيد بن الوليد مواطن الغضب والرضا في نفوس الأمة ، فدخل على هذه النفوس من مواطن الرضا وتجنب مواطن الغضب ، وهذا روح السياسة .

هذه شواهد يسيرة على علم بعض خلفاء المسلمين بما يغضب الأمة ويرضيها في سياسة المال ، وإفاضة هؤلاء الخلفاء في كلام مثل الكلام الذي تقدم برهان على معرفتهم بالمواضع الهائجة للمائجة في أعصاب الناس .

هشام بن عبد الملك

رأينا في الفصل المتقدم كيف كانت عواقب سياسة الذين أسرفوا في النفقات وبددوا بيت مال المسلمين ، والبخل في السياسة عواقبه قريبة من عواقب التبذير ، ومن الخلفاء طائفة سلكت مسلكا وسطا ، وعلى رأسهم هشام بن عبد الملك ، فحمدوا عواقب سياستهم الرشيدة المتصلة بروح الجماهير .

ذكر فريق من المؤرخين أشياء كثيرة عن أخلاق هشام بن عبد الملك ، فقد أشار ابن قتيبة إلى محاسنه ، فلم يغفل عن عظم قدره وانقياد البلاد إلى سلطانه ، وقربه من الضعفاء واهتمامه بالإصلاح وتهيب الناس له ، وورده للمظالم وأخذه على يد الظالم ، وإدناؤه للضعفاء والنساء واليتامى ، وإقصائه لأهل القوة ، وحتى ربما أتت عليه تارات من الليل وساعات من النهار لا ينظر في شيء ولا يأتيه أحد في خصومة لاستغناء الناس عن المطالب والتخوف من سطواته وعقوباته ، فقد وسع البلاد أمنه وأشعرهم عدله ،

وصارت البلاد المتناثية الشاسعة كدار واحدة ترجع إلى حاكم يرقبه الناس في المواضع النائية عنه كما يرقبه من معه ، وقد تمكن بفضل جواسيسه من معرفة أحوال ولاته وأعمالهم وأعمال الأخيار والأشرار ، بحيث لا يكون خبر ولا تحدث قصة من مشرق الأرض ولا مغربها إلا وينظر فيها هشام ، فكانت أيامه عند الناس أحمد أيام مرت بهم وأعفاها وأرجاها .

كان المنصور في أكثر أموره وتديره وسياسته متبعاً لهشام في أفعاله ، لكثرة كشفه عن أخبار هشام وسيره ، وكان يقول : رجل بنى أمية هشام .

أراني قد أطلت في تلخيص أمور عن هشام تكاد تكون خارجة عن موضوعي ، فأنا لا أتعرض في هذا الفصل إلا لسياسة المال وحدها ، ولكنني خلصت ما خلصت حتى يعرف القارئ هذا التناقض العجيب في نواحي سياسة هشام ، ولا أقول إن إتقانه لسياسة المال هو الذي جرَّ إلى إتقانه لكل أمور السياسة ، ولكني أقول إن هذا الرجل العظيم كانت سياسته حسنة الانسجام في جميع أشكالها ، ومن هذه الأشكال سياسة المال . ولا ريب في أن خليفته تدوم خلافته عشرين سنة على الصفات التي أشار

إليها ابن قتيبة وغيره من رجال التاريخ لجدير بالبحث عن جوهر سياسته ومسر نجاحها ، ولكن المرء يحار في هذا الجوهر وهذا السر ، إلى أى شئ يرد عوامل النجاح . ولعل في القصة التي أنقلها عن العقد الفريد توضيحاً لأسباب نجاح سياسة هشام في قضايا المال ، وهو الموضوع الذي أحبس عليه البحث في هذا الفصل .

وفد عليه أهل الحجاز وكان شباب الكتّاب إذا قدم الوفد حضروا للاستماع بلاغة خطبائهم ، فتكلم محمد بن أبى الجهم بن حذيفة العدوى ، وكان أعظم القوم قدراً وأكبرهم سناً فقال : أصلح الله أمير المؤمنين ، إن خطباء قريش قد قالت فيك ما قالت وأكثرت وأطنبت ، والله ما بلغ قائلهم قدرك ، ولا أحصى خطيبهم فضلك ، وإن أذنت في القول قلت ، قال : قل وأوجز ، قال : تولاك الله يا أمير المؤمنين بالحسنى ، وزينك بالتقوى ، وجمع لك خير الآخرة والأولى ، إن لى حوائج أفأذكركها؟ قال : هاتها قال : كبر سننى ، ونال الدهر منى ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يجبر كسرى وينفى فقرى فعل ، قال : وما الذى ينفى فقرى ويجبر

كسرك؟ قال : ألف دينار وألف دينار وألف دينار ، قال :
فأطرق هشام طويلاً ثم قال : يا ابن أبي الجهم ، بيت المال لا يَحْتَمِلُ
ما ذكرت ، ثم قال له : هيه ، قال : ما هيه ! أما والله إن الأمر
لو إلى أحد ! ولكن الله أثرك لمجلسك ، فإن تعطنا فحقنا أدبت
وإن تمنعنا فنسأل الذي بيده ماحويت يا أمير المؤمنين ! إن الله
جعل العطاء محبة والمنع مبغضة ، والله لأن أحبك أحب إلى من
أن أبغضك ، قال : فألف دينار لماذا ؟ قال : أقضى بها ديناً
فدخني قضاؤه وقد عناني حمله وأضر بي أهله ، قال : فلا بأس ،
تنفس كربة وتؤدي أمانة ، وألف دينار لماذا ؟ قال : أزوج بها
من بلغ من ولدي ، قال : نعم المسلك سلكت ، أغضضت بصراً
وأعففت ذكراً ورفعت نسلاً ، وألف دينار لماذا ؟ قال : أشتري
بها أرضاً يعيش بها ولدي وأستعين بفضلها على نوائب دهرى ،
وتكون ذخراً لمن بقي ، قال : فإننا قد أمرنا لك بما سألت ، قال :
فالحمود لله على ذلك وخرج ، فأتبعه هشام بصره وقال : إذا
كان القرشي فليكن مثل هذا ، ما رأيت رجلاً أوجز في مقال
ولا أبلغ في بيان منه ، ثم قال : أما والله ؛ إنا لنعرف الحق إذا
نزل ونكره الإسراف والبخل ، وما نعطي تبذيراً ولا نمنع تقثيراً ،

وما نحن إلا خزان الله في بلاده ، وأمانؤه على عبادہ ، فإذا أذن
أعطينا ، وإذا منع أبينا ، ولو كان كل قائل يصدق ، وكل سائل
يستحق ، ما جبهنا قائلًا ، ولا ردنا سائلًا ، ونسأل الذي بيده ما
استحفظنا أن يجريه على أيدينا ؛ فإنه ييسط الرزق لمن يشاء
ويقدر ، إنه بعباده خبير بصير .

إذا تدبرنا هذه القصة استطعنا أن ندرك سياسة هشام
بن عبد الملك في تدبير المال . يدلنا الشق الأول منها على أنه
يمنع ثم يعطي ، ولكنه لا يعطي إلا إذا رأى سبيلًا إلى العطاء ،
لقد منع عن ابن أبي الجهم المال . ولكنه لما تبين له أن هذا المال
سيمصرف في وجهه عاد إلى العطاء ، ويدلنا الشق الأخير من
القصة على توضيح هشام بن عبد الملك لسياسته في تدبير المال ،
إنه يكره الإسراف والبخل ، فلا يعطي تبذيرًا ولا يمنع تقتيرًا ،
وهذه العبارة على اختصارها تتضمن أبلغ إشارة إلى طرق إنفاقه
للمال ، إنه يكره الإسراف ، ففي تاريخ العرب أمور كثيرة تدل
على أن طائفة من العمال والخلفاء أخفقت سياستهم لأنهم أسرفوا
في مال المسلمين ، وإنه يكره البخل ، ففي هذا التاريخ نفسه أمور
غير قليلة تبين لنا أن بعض العمال والخلفاء لم تنجح سياستهم

لفرط بخلهم ، وحسبي الإشارة إلى عثمان بن عفان وعبد الله بن الزبير ، فالأول قد فصّلت سياسته للمال ، فرائفاً كيف كانت عواقب هذه السياسة ، والثاني لم تفجّح سياسته لأسباب كثيرة ، من جعلتها بخله الشديد ، يكره العرب البخل والإسراف من قبل العمال والأمراء والخلفاء ، فالعاقل من كان بصيراً بمعرفة في سياسة العرب ، وهشام بن عبد الملك كان نصيبه من هذه المعرفة النفسية غير قليل ، وضع مال المسلمين في مواضعه ، كان يمنع في وقت المنع ، ويعطى في زمن العطاء ، فيحفظ بهذه السياسة الحكيمة بيت مال المسلمين ، لم يبخل ولم يبذر ، ولهذا العلة ، ولعلل أخرى كان الناس معه في دعة وسكون وراحة ، إنا نعرف كيف ينقم الشعب على حكومة تبذر أمواله وتصرفها في غير وجوها ، ونعرف كيف ينقم على حكومة تحزن الأموال ولا تصرفها في سبيل شيء من الإصلاح ، فهشام بن عبد الملك فطر على محاسن كثيرة ، في رأسها معرفته بتأثير المال في النفوس ، وإتقانه لسياسة المال في الرعية ، فأحسن القيام عليه ، فأرضى بهذا الإحسان الرعية عامة ، ولم يظفر بهذا الرضا إلا لاهتمامه إلى أسرار السياسة النفسية .

خاتمة القول

هذا آخر ما أحببت الإشارة إليه في كلامي على العناصر
 النفسية في سياسة العرب ، ولم أستقص في تاريخ العرب عامة ،
 وإنما استخرجت نماذج السياسات النفسية التي ذكرتها في هذا
 الكتاب من تاريخ الخلفاء الراشدين وخلفاء بني أمية وعملهم ،
 ولو اتسع المجال لاستنباط نماذج ثانية من تاريخ بني العباس لفعالت ،
 على أن هذا القليل الذي أثبتته قد دلنا الدلالة الواضحة على أن
 كثيراً من عمال العرب وأمرائهم وخلفائهم قرنوا سياستهم بعلم
 النفس ، فالسياسة وعلم النفس متلازمان ، وكل سياسة منحرفة
 عن علم النفس إنما هي سياسة فاسدة . ولقد أحسن بعض كتاب
 العرب المتقدمين بهذا الأمر فوضعوا الكتب في هذا الباب ، وقد
 طالعت كتاباً صغيراً اسمه : سلوك المالك في تدبير الممالك ، لصاحبه
 شهاب الدين بن أبي ربيع ، ألفه للخليفة المعتمد .

بنى ابن أبي ربيع كتابه على أربعة فصول : فصل في المقدمة
وثلاثة فصول في أحكام الأخلاق وأقسامها وفي أصناف السيرة
العقلية وانتظامها وفي أقسام السياسات وأحكامها .

- عنوان الكتاب يدل على موضوعاته ، فهو عبارة عن جملة
قواعد وضعت للذين يسوسون أمور الناس .

من هذه القواعد مايلي : سأل الاسكندر حكيما : من يصلح
للملك ؟ فقال له : إما ملك حكيم ! أو ملك ملتزم للحكمة ، والحكمة
في هذا المقام معناها الفلسفة .

ومن جملتها : وعلى الملك أن يعرف أكثر أخلاق رعيته
ليؤهل كلاً لما يصلح له من الولايات .

إلا أن التربة الخصبة التي نبت فيها هذا الرأي ، قرن السياسة
بعلم النفس إنما هي تربة المدينة الفاضلة لأفلطون ، وإذا كانت
دساتير الأمم في عصرنا قد اختلفت عن دساتير المتقدمين ، فأصبح
للأُمم مجالس نواب ومجالس شيوخ وغير ذلك فإن شيئاً واحداً

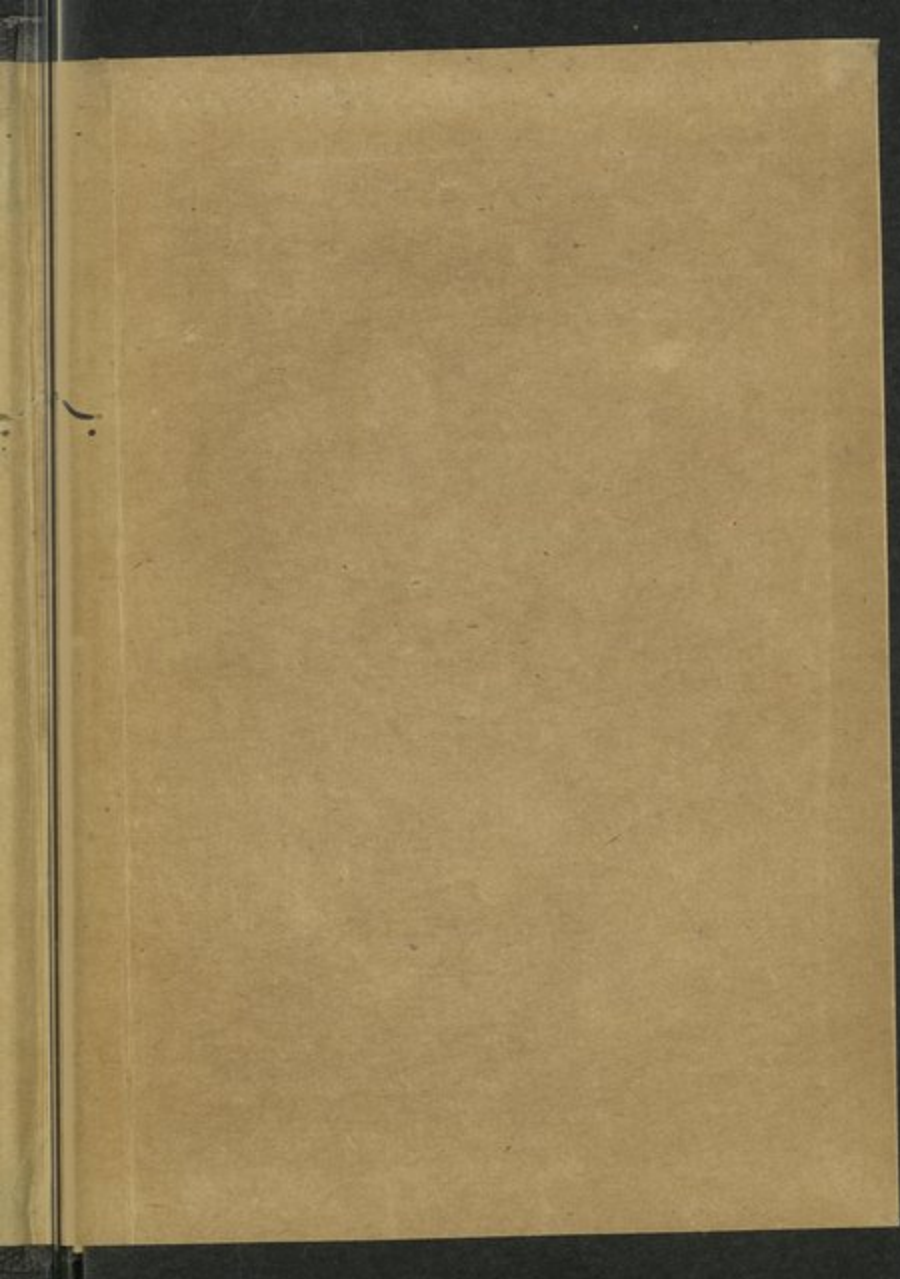
لم يتغير ، وهو بناء السياسة على علم النفس ، فالسياسة الحكيمة هي التي تتصل بمعرفة النفوس والأخلاق .

ومن كتاب هذا العصر « موروا » وله كتاب اسمه : فن الحياة ، أو أحد فنون الحياة ، من فصول هذا الكتاب : فصل فن الحكم ، فقد تكلم فيه المؤلف على أخلاق الرؤساء الذين يسوسون أمور الناس ، فالرئيس الكبير في نظره هو صاحب الخلق الكبير ، الرئيس الكبير هو الرئيس المتجرد ، وقد ذكر رؤساء لم يكونوا من أصحاب الذهن والعقل ، ولكنهم كانوا لا يشك أحد في نزاهتهم ، فقد تخلى بعضهم للدولة عن قسم من ماله ، وكان بعضهم لا يرضى بأن يسخر أحداً من الموظفين في وزارته في شغله الخاص ، فكل قوتهم صادرة عن هذه الفضيلة الابتدائية ، وهي النزاهة .

فنحن نرى أن المؤلفين لا يبحثون عن السياسة إلا بحثوا عن الأخلاق وعن علم النفس ؛ فالسياسة أخت علم النفس وأخت الأخلاق ، على خلاف ما هو شائع من أن السياسة لا خلق لها ، فإن السياسة التي لا خلق لها إنما هي سياسة لا تلبث أن تتلاشى

كما يتلاشى الدخان في الفضاء ، وما نجحت سياسة بعض رجال العرب في الماضي ، مثل الذين أثبت على ذكركم ، إلا لأن أصحابها كانوا على خلق عظيم ، وكانوا زيادة على ذلك عالمين بأبصار النفوس واقفين على حقائق الطبائع ، مطاعين على خفايا الأمور .

فإذا تجرد رجال السياسة من الأخلاق ومن معرفة نفوس الناس ضاعت سياستهم وضاع الناس وضاعت البلاد في وقت واحد !



320.1:J11aA:c.1

جبري، شفيق

العناصر النفسية في سياسة العرب

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01013497

American University of Beirut



320.1

J11aA

General Library

320.1
J11aA
C.1